

LOOKING FOR TRUTH

البحث عن اليقين

د. خالد أبو شادي

بسم الله الرحمن الرحيم

المسابقة الثقافية الرابعة لمسجد عثمان بن عفان ﵁ العلمة

طريقة المسابقة :

- أجب على الـ: (35) سؤالا، من خلال قراءتك لكتاب : (**البحث عن اليقين**)، **لخالد أبي شادي** .
- قم أوّلا بتحميل مسودة الأسئلة وأجب على الأسئلة يدويا في ملف ورقي خارجي قبل أن تنقل جوابك في رابط بعث الجواب.
- يمكنك الاستعانة بالكتاب عند الإجابة، ومن المستحسن هضم الأسئلة جيدا قبل الشروع في القراءة والإجابة.
- رقم صفحة الجواب ضروري في أغلب الأسئلة، وعليه نقطته الخاصة به.
- **لا يليق بمسلِم أن يغش**، ويزداد الأمر قُبحاً إذا كان الغشّ في مسابقة دينية، وعليه:

– فلا تُصرِّح بمعلومات خاطئة.

– لا تستعن بأحدٍ في الإجابة.

– لا ترسل جوابك إذا لم تقرأ الكتاب كاملا.

– لا تستعمل محرّكات البحث للوصول إلى الإجابات، سواء الانترنت أو غيره.

– كل إجابة يكتشف فيها الغش فإنها تلغى.

- آخر أجل لاستقبال الأجوبة هو: **20 صفر 1446 هـ الموافق لـ : 24 أوت 2024م.**
- لا يحق للمتسابق المشاركة بأكثر من إجابة واحدة، فإذا أرسل أكثر من جواب فالإجابة المعتبرة هي الأولى، والأخرى ملغاة.
- قبل إرسال جوابك تأكّد أنك قد ملأت جميع فراغات الأجوبة، وأنك لم تنس أي خيار.
- لا يوجد تسجيل من أجل المشاركة، المهم هو وصول الجواب مع المعلومات قبل نهاية مهلة الجواب.
- **نسعد بمشاركتكم ودعوتكم غيركم للمشاركة،** إذا لم تفهم سؤالا أو شيئا في الكتاب، أو أمرا متعلقا بالمسابقة فيمكنك التواصل على الرقم التالي: (0697444166) .

صفحة الأسئلة :

1. **مَن مِن أولي العزم من الرّسل لم يذكر في الكتاب؟ ....(صفحة الجواب غير مطلوبة في هذا السؤال).**
   - **نوح ﵇.**
   - **إبراهيم ﵇.**
   - **موسى ﵇.**
   - **عيسى ﵇.**
   - **محمد ﷺ.**
   - **ذكروا كلهم.**
2. **مَن مِن الخلفاء الراشدين الأربعة لم يذكر في الكتاب؟ ....(صفحة الجواب غير مطلوبة في هذا السؤال).**

- أبو بكر الصديق ﷺ.
- عمر بن الخطاب ﷺ.
- عثمان بن عفان ﷺ.
- علي بن أبي طالب ﷺ.
- ذكروا كلهم ﷺ.

3. مَن مِن الأئمة الأربعة لم يذكر في الكتاب؟ ....(صفحة الجواب غير مطلوبة في هذا السؤال).

- أبو حنيفة رحمه الله.
- مالك بن أنس رحمه الله.
- الشافعي رحمه الله.
- أحمد بن حنبل رحمه الله.
- كلهم ذكروا.

4. أورد المؤلف كلاما وأقوالا كثيرة لبعض الأهل العلم، فمن هو أكثرهم مما يلي: ....(صفحة الجواب غير مطلوبة في هذا السؤال).

- ابن الجوزي رحمه الله.
- ابن قدامة رحمه الله.
- ابن تيمية رحمه الله.
- ابن القيم رحمه الله.

5. في أي غزوة استشهد عبد الله بن رواحة ﷺ؟ ....(اذكر صفحة الجواب).

- غزوة بدر.
- غزوة أحد.
- غزوة الخندق.
- غزوة مؤتة.

6. من هم أول من يدخل الجنة من أمة محمد ﷺ؟ ....(اذكر صفحة الجواب).

- أوّل من أسلم.
- العشرة المبشرون بالجنّة.
- فقراء المهاجرين.

7. من هم أعجب الخلق إيمانا؟ ....(اذكر صفحة الجواب).

- الملائكة.
- النّبيون.
- الصّحابة.
- من جاء بعد الصّحابة.

8. اذكر عدد ما أورده المؤلف عن أنس بن مالك ﷺ، سواء من أقواله هو ﷺ أو أحاديث النبي ﷺ القولية أو الفعلية؟

....(اذكر كلّ الصفحات التي وجدت فيها الجواب).

9. أي أنواع من الصبر أكمل: الصبر عن المعصية أو الصبر على البلاء؟ ....(اذكر صفحة الجواب).
10. أجب بصح أم خطأ: معنى يظنّون في قوله تعالى : (الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم) يَشكّون. ....(اذكر صفحة الجواب)
11. أجب بصح أم خطأ: الإصرار على الذنوب والمعاصي من موانع فهم القرآن. ....(اذكر صفحة الجواب).
12. أجب بصح أم خطأ: اليهود ـ في زمن النبي ﷺ ـ ينكرون بعذاب القبر. ....(اذكر صفحة الجواب).
13. أجب بصح أم خطأ: ضعيف اليقين في باب الرزق من أسباب الوقوع في خلق الحسد. ....(اذكر صفحة الجواب)
14. من هو الصّحابي الجليل، الذي اسمه مثل اسم أبيه؟ ....(اذكر صفحة الجواب).
15. من هو الصّحابي الجليل، الذي جعل النبي ﷺ شهادته بشهادة رجلين؟ ....(اذكر صفحة الجواب)
16. من هو الصّحابي الجليل، الملقب بـ : (خطيب الأنصار)؟ ....(اذكر صفحة الجواب)
17. من هو العالم الملقب بـ : (فقيه الكوفة)؟ ....(اذكر صفحة الجواب).
18. من هو العالم الملقب بـ : (سيّد قرّاء أهل الكوفة)؟ ....(اذكر صفحة الجواب)
19. من هو العالم الملقب بـ : (واعظ دمشق)؟ ....(اذكر صفحة الجواب)
20. من القائل: (لأن ألحس جمرة أحرقت ما أحرقت، وأبقت ما أبقت، أحبّ إليّ من أقول لشيء كان: ليته لم يكن، أو لشيء لم يكن ليته كان)؟ ....(اذكر صفحة الجواب)
21. من القائل: (السّلف تلمّحوا الثّواب فهان عليهم البلاء)؟ ....(اذكر صفحة الجواب).
22. من القائل: (من أيقن بالخُلف جاد بالعطيّة)؟ ....(اذكر صفحة الجواب)
23. من القائل: (إني لأعجب ممن قرأ القرآن ولم يعلم تأويله، كيف يتلذ بقرائته!)؟ ....(اذكر صفحة الجواب).
24. من صاحب هذا الدعاء: (اللّهُمَّ رضني بقضائك، وبارك لي في قدرك، حتى لا أحبّ تعجيل شيء أخّرته، وتأخير شيء عجّلته)؟ ....(اذكر صفحة الجواب).
25. من هو صاحب كتاب: (تاريخ الملوك والرّسل)؟ ....(اذكر صفحة الجواب)
26. من هو صاحب كتاب: (نبوءات الرسول ﷺ، ما تحقّق منها.. وما لم يتحقّق)؟ ....(اذكر صفحة الجواب).
27. ما اسم السّيف الذي كان يقاتل به عكاشة بن محصن رضي الله عنه؟ ....(اذكر صفحة الجواب)
28. متى يبلغ العبد غاية حبّه لله تعالى؟ أجب بكلام لأحد السّلف. ....(اذكر صفحة الجواب)
29. من الأخلاق المذمومة إيثار الدّنيا على الآخرة وتقديمها عليها، فما علامة ذلك عند يونس بن عبيد رحمه الله؟ ....(اذكر صفحة الجواب).
30. ما هي عقوبة من ينام عن الصّلاة حتى يخرج وقتها ؟ ....(اذكر صفحة الجواب)
31. ما هي عقوبة من يقع في أعراض النّاس، ويأكل لحومهم؟ .... (اذكر صفحة الجواب)
32. ما هو أحسن مفتاح يستعمله الداعية، والنّاصح للنّاس، يدفعهم إلى تنفيذ أحكام الدين الشّرعية والاستجابة لها بفورية؟ ....(اذكر صفحة الجواب).
33. المعروف أنّ الزكاة في المال، ولكن المؤلف أفادنا أنّ العلم له زكاة، فكيف يزكّي العبد علمه؟ .... (اذكر صفحة الجواب).
34. ماهي ثمرة الإيمان بقدرة الله تعالى؟ ....(اذكر صفحة الجواب).
35. ما هو أخطر أمراض القلب في هذا العصر في نظر المؤلف؟ ....(اذكر صفحة الجواب)

نرجو لكم جولة ممتعة مع الكتاب ورحلة مفيدة في الإجابة على الأسئلة، وحظ موفق للجميع

مقدمــــة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أما بعد...

فهذا الكتاب رسالة أبعث بها إلى من ظل سنوات عديدة .. يسير بلا هدف .. ويمضي على غير هدى لا قيمة لحياته أخذت الدنيا منه كل شيء: عقله وروحه ووقته فلم تدع للآخرة شيئًا أخي .. لو علمت علم اليقين، أو أبصرت غاية النعيم، أو اطلعت على الجنة لحظة، أو نلت من النار نظرة، أو تقلبت في ظلمات القبر برهة لكان الحال غير الحال.

كل مولود يولد على الفطرة غرس الله فيه الشوق إلى الجنة والخوف

من النار، لكن زحف الشيطان على رصيد الفطرة الكامن وسرقته من هذا الكنز أدى إلى اهتزاز صورة الجنة في الأذهان، وبدلاً من التصديق كان التخمين، وتواري البذل والإقدام ليتقدم الجبن والخذلان، وصار الناس بما في أيدي البشر أوثق مما في يد رب البشر، وانقلبت الدنيا حقيقة لتصبح الآخرة خيالاً، وغدت المواعظ والآيات لا تنتزع من الناس غير كلمات الإعجاب ومصمصة الشفاه، وأصبح وجود الحساب والجزاء عندهم مسألة فيها نظر، هم لا ينطقون هذا بلسانهم لكن كفر جوارحهم يشهد، وميزان سيئاتهم يشهد، ورائحة ذنوبهم تشهد، وقلة حسناتهم تشهد.

أخي...

المنن توقظ الهمم ... والجوائز تنتظر الفائز

والله لو كُشف الحجاب عن الناس لحظة ليروا الجنة رأي العين إذًا لأفنوا أعمارهم عن عبادة الله لا يفترون وفي مرضاته يتنافسون، ولو أشرق من ثناياها نور لقلب ليلهم نهارًا به يقومون وبأسحاره يستغفرون ولكن شاءت إرادة الله أن يختبر عباده في إيمانهم بالغيب وهذا هو جوهر الإيمان.

- **اليقين** الذي صنع وما يزال يصنع نماذج بذل وتضحية لا يصدقها عقل إذا قاسها بمقياس المادة، لكن الأمر مع العقيدة يختلف.

- **اليقين** الذي إن حَلَّ في القلب رأيت الفرق واضحًا بين من حازه ومن حرم منه، كالفارق بين الحرير الطبيعي

والحرير الصناعي، أو بين النائحة الثكلى والنائحة المستأجرة، والفارق بين الصوت والصدى، أو بين الأسد وصورة الأسد.

- **اليقين** هو السر الذي سَبَقَنا به أصحاب النبي ﷺ، فإنهم ما سبقونا بكثرة صلاة أو عبادة فحسب، بل سبقونا بهذا الرصيد الخفي الذي لا يطلع عليه أحد إلا الذي يطلع على خفايا الصدور ومكنونات القلوب ... إنه كنز اليقين.

لقد وهن اليقين في قلب الأمة تحت ضغط المادية الرهيب، وصار الناس يقيسون الأمور بمقاييس المادة فحسب، مع أن رسالتنا قائمة في الأساس على الإيمان بالغيب، فالله -جل جلاله- وملائكته ورسله واليوم الآخر غيب؛ ومن لم يؤمن به ويوقن فليس له من الإيمان نصيب.

كان مالك بن دينار [ت: ١٣٠] يقول: «يا هؤلاء .. إن الكلب إذا طرح إليه الذهب والفضة لم يعرفهما، وإذا طرح إليه العظم أكبَّ عليه، كذلك سفهاؤكم لا يعرفون الحق»[1].

آه من إنسان ضيَّع أوراق هويته، وتاه عما خُلِق له، وُعِد بالجنة فنام، ورضي من الدين بالكلام، أخي .. متى تنتبه من نومتك؟ متى تستيقظ من غفلتك؟ متى تفيق من سكرتك؟ متى تعمل لمصرعك؟ إن كان كل الكدح للدنيا فما الذي بقي للآخرة؟!

(١) حلية الأولياء ٢/ ٣٦٠.

✍ أخي...

> **لو تجرَّعت كأس يقين لذهبت وساوسك، ولو أشرقت شمس الجنة على قلبك لانقشعت عنه سُحُب الهوى، ولو عاش إيمانك لمات شيطانك.**

ساعدني بالله عليك .. أَعِنِّي على نفسك أريد أن آخذ بيدك، وأنقذك من براثن عدوك، وأنزع عنك وساوسه، سأحرقها بإذن الله ولن تثبت أمام آيات الرحمن وأحاديث النبي العدنان، سأرسل كلمات وعظي صواعق تحرق خداعه ونارًا تدمر شباكه، ولن أكتفي بذلك فحسب، بل سأغزوه في عقر داره حتى لا يجرؤ بعدها على مبارزتك.

الطريق قد وضح، والحق قد لاح، والداعي قد أسمع، فما التحير بعد كل هذا إلا من العمى.

فخـــد بعلمـــي وإن قصـــرت في عملـــي
ينفعـــك علمـــي ولا يضـــرك تقصـــيري

هدف هذا الكتاب أن يصنع الموقن على عين الله ورعايته لتكون أبرز ملامحه أن الدنيا سجنه، والخلوة مجلسه، والاعتبار فكرته، والقرآن حديثه، والله أنيسه، والذكر رفيقه، والزهد قرينه، والحزن شأنه، والحياء شعاره، والجوع إدامه، والحكمة كلامه، والتقوى زاده، والصمت غنيمته، والصبر معتمده، والتوكل حسبه، والعبادة حرفته، والجنة منتهاه.

وقبل أن أتركك مع صفحات الكتاب .. لي عندك شرط وضريبة:

شـــرط:

لا بد من تنفيذه حتى تنتفع بما تقرأ وهي وصية ابن السماك [ت: ٨٣] الذي أرشدك فقال: «اعلم أن للموعظة غطاء وكشفًا، غطاؤها التفكر، ولَحَاجَتُك إلى العظة أكبر من حاجتك إلى الصِّلة، وأخاف أن لا تجد لها موضعًا في عقلك مع ما فيه من هموم الدنيا»[1]

ففرِّغ قلبك من هموم الدنيا أولاً، ثم ابدأ القراءة ثانيًا، لتجني ثماره ثالثًا، وهو ما قرره ابن عطاء [ت: ٧٠٩] سلفًا في إحدى حكمه حين قال:

«ربما وردت عليك الأنوار؛ فوجدت القلب محشوًا بصور الآثار، فارتحلت من حيث نزلت».

فانظر قبل البدء .. ماذا حشوت قلبك يا أخي؟!

(١) حلية الأولياء ٨/ ٢٠٨. أبو نعيم الأصفهاني. ط دار الكتب العلمية.

ضريبة:

> قراءتك لهذا الكتاب توجب عليك ضريبة لا بد لك من دفعها كما جاء قانون أحمد بن حنبل [ت: ٢٤١] الذي ينص على أن (سبيل العلم مثل سبيل المال، إن المال إذا زاد زادت زكاته) (١)

فزكاة العلم تبليغه وتوصيله للناس، حتى يهتدي بك من حولك وتنال أجر من سمعك.

هذا الكتاب جرعة إيمانية باردة تروي عطش الظامئين المشتكين من يبوسة القلب وامتصاص حيويته تحت وقع المادية الطاغي، أو هو وجبة روحانية مشبعة، وهل يعمل الجائع حتى يشبع؟!

وأؤكد لك أن روحك ستشبع مع آخر صفحة من صفحات الكتاب، بل ربما قبلها بحسب حالة قلبك، لكن بعد الشبع يأتي العمل، وقد كان لك عذر فيما مضى أنك ما عرفت ولا من الغيب اغترفت، أما وإذا شبعت مع هذا الكتاب فلن يعود لديك عذر، وليس سوى ساحات البذل تنتظرك.

هذه الورقات سياحة في ميدان الغيب، ومحاولة متواضعة لاستشراف أسراره؛ لذا فقراءتها تزيد الإيمان، وتكرار قراءتها ترسخ في النفس معانيها، واللجوء إليها عند اضطراب القلب وتسلل الريب

(١) الآداب الشرعية والمنح المرعية ٢/ ١٤٢ ابن مفلح. ط دار الكتب العلمية.

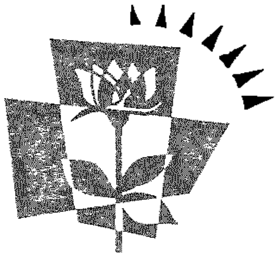
والشك إليه من أعظم الدواء.

اللهـــــــــــم

إنا نستغفرك من كل ما زلت به القدم، أو طغى بـه القلم، ونسـتغفرك مـن أقوالنـا الـتي لا توافـق أفعالنـا، ونستغفرك من كل مـا ادعينـاه مـن العلـم بـدينك مـع التقصير فيه، ونستغفرك من كل خطرة دعتنا إلى تصـنع وتـزين، في كتـاب سـطرناه أو كـلام نظمنـاه، أو علـم أفدناه؛ اللهم اجعلنا بما علمناه عـاملين، ولوجهـك بـه مريـدين، ولا تجعلـه وبـالاً علينـا، وضـعه في ميـزان الصالحات إذا ردت إليك أعمالنا يا أكرم الأكرمين.

الفقير إلى عفو ربه





ما هو اليقين؟

إن مما عم وانتشر اليوم حتى تسلل إلى أذهاننا وطرق تفكيرنا: الكيفيات، فكثيرًا ما نقرأ كتبًا ومقالات تتحدث عن: كيف تفعل كذا؟ وكيف تصل إلى كذا؟ وكيف وكيف؟ وذلك قبل تحديد معنى الهدف الذي نريد أن نصل إليه؛ ولذا تأتي النتائج خاطئة وغير متوقعة، ولا تُرضي أصحابها، من هنا فلا بد قبل البداية أن نعرف معنى اليقين ومفهومه حتى يصح طريقنا وتتحدد وجهتنا في ضوء هذه المعرفة، فما هو اليقين؟!

قال الجرجاني:

اليقين في اللغة: العلم الذي لا شك معه.

وفي الاصطلاح: اعتقاد الشيء بأنه كذا، مع اعتقاد أنه لا يمكن إلا كذا، مطابقًا للواقع، غير ممكن الزوال، والقيد الأول جنس يشتمل على الظن أيضًا، والثاني يخرج الظن، والثالث يخرج الجهل، والرابع يُخرج اعتقاد المقلِّد المصيب.

وعند أهل الحقيقة: رؤية العيان بقوة الإيمان لا بالحجة والبرهان.

وقيل: مشاهدة الغيوب بصفاء القلوب، وملاحظة الأسرار بمحافظة الأفكار.

- وقيل: هو طمأنينة القلب على حقيقة الشيء؛ يقال: يقن الماء في الحوض إذا استقر فيه.
- **وقيل:** تحقيق التصديق بالغيب بإزالة كل شك وريب.
- **وقيل:** اليقين نقيض الشك.
- **وقيل:** اليقين رؤية العيان بنور الإيمان.
- **وقيل:** اليقين ارتفاع الريب في مشهد الغيب.
- **وقيل:** اليقين العلم الحاصل بعد الشك»[1].
- **وقال صاحب المصباح المنير:**

> «العلم الحاصل عن نظر واستدلال، ولهذا لا يسمى علم الله (يقينًا)، و(يَقِن) الأمر (يَيْقن) (يقنًا) فهو (يقين) فعيل بمعنى فاعل، ويستعمل متعديًا أيضًا بنفسه وبالباء فيقال: (يقَنْتُهُ) و (يَقِنْتُ) به، و(أيقنت) به، و (تيقنته)، و (استيقنته) أي علمته»[2].

- **وفي لسان العرب:**

> «اليقين: العلم وإزاحة الشك وتحقيق الأمر، واليقين نقيض الشك، والعلم نقيض الجهل، تقول: علمتُه يقينًا وفي التنزيل العزيز: ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ [الحاقة: ٥١]؛ أضاف

(١) التعريفات ١/ ٣٣٢.
(٢) المصباح المنير ٢/ ٦٨١ بتصرف يسير.

> الحق إلى اليقين وليس هو من إضافة الشيء إلى نفسه لأن الحق هو غير اليقين، إنما هو خالصه وأصحه فجرى مجرى إضافة البعض إلى الكل»[1].

اليقين إذن نور يقذفه الله في قلب من يصطفي من خلقه حتى يشاهد به أمر آخرته؛ ويخترق بقوته كل حجاب بينه وبين الغيب فيطلع على تلك الأمور كأنه يشاهدها، فإذا أشرق نور اليقين في الصدر ذهبت الحيرة والشكوك، وزالت المخاوف، واطمأن القلب، ونشطت الأعضاء للطاعة والبذل.

وعلى النقيض من اليقين: الشك والظن، فأما الشك فهو (التردد بين النقيضين بلا ترجيح لأحدهما على الآخر عند الشاك، وقيل الشك: ما استوى طرفاه وهو الوقوف بين الشيئين لا يميل القلب إلى أحدهما، فإذا ترجح أحدهما ولم يطرح الآخر فهو ظن، فإذا طرحه فهو غالب الظن وهو بمنزلة اليقين)[2].

وأما الظن فهو (الاعتقاد الراجح مع احتمال النقيض ويستعمل في اليقين والشك، وقيل: الظن أحد طرفي الشك بصفة الرجحان)[3]، (والظنون: البئر التي لا يُدرى أفيها ماء أم لا، والظن يكون بمعنى الشك وبمعنى اليقين؛ كما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾[البقرة: ٤٦] أي يتيقنون)[4].

(١) لسان العرب ١/ ٤٥٧ بتصرف.
(٢) التعريفات للجرجاني ١/ ١٦٨.
(٣) المصدر نفسه ١/ ١٨٧.
(٤) العين ٨/ ١٥٢.

درجات اليقين

قال الجرجاني:

«حق اليقين عبارة عن فناء العبد في الحق، والبقاء به علمًا وشهودًا وحالاً لا علمًا فقط، فعلم كل عاقل الموت علم اليقين؛ فإذا عاين الملائكة فهو عين اليقين، فإذا ذاق الموت فهو حق اليقين، وقيل علم اليقين: ظاهر الشريعة، وعين اليقين: الإخلاص فيها، وحق اليقين: المشاهدة فيها»[1].

وقد سئل شيخ الإسلام أبو العباس أحمد بن تيمية عن قوله تعالى:﴿حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ و﴿عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ و﴿عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾ فما معنى كل مقام منها؟ وأي مقام أعلى؟

فأجاب: «الحمد لله رب العالمين. للناس في هذه الأسماء مقالات معروفة..

منها: أن يقال:﴿عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾ ما علمه بالسماع والخبر والقياس والنظر.

﴿عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ ما شاهده وعاينه بالبصر.

﴿حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ ما باشره ووجده وذاقه وعرفه بالاعتبار.

فالأول: مثل ما أخبر أن هناك عسلا وصدق المخبر.

(١) التعريفات للجرجاني ١/ ١٢٠.

أو رأى آثار العسل فاستدل على وجوده.

والثاني: مثل مَنْ رأى العسل وشاهده وعاينه، وهذا أعلى كما قال النبي ﷺ: «ليس المخبر كالمعاين».

والثالث: مثل من ذاق العسل ووجد طعمه وحلاوته، ومعلوم أن هذا أعلى مما قبله»[1].

(١) مجموع الفتاوي ١٠/ ٦٤٥.

الفصل
الأول

فضل اليقين ودرجاته

- كيف تبحث عن كنز لا تعرف قيمته؟
- وكيف تتجشم مشقة السير في طريق لا تدري ما آخرها؟
- وما الذي يمنحك القدرة على المواصلة سوى رؤية جمال العاقبة وتلمح لذة النهاية وتلمس حلاوة الجزاء.

فضل اليقين

١- غفران الذنوب:

عن أبي هريرة ﷺ [ت: ٥٨] قال: قال رسول الله ﷺ:

«أسرف رجل على نفسه فلما حضر الموت أوصى بنيه فقال: إذا أنا مت فأحرقوني، ثم اسحقوني ثم ذروني في الريح في البحر، فوالله لئن قدر عليّ ربي ليعذبني عذابًا ما عذبه أحدًا، قال: ففعلوا به ذلك، فقال الله للأرض: أدي ما أخذت فإذا هو قائم، فقال له: ما حملك على ما صنعت؟ قال: خشيتك أو مخافتك يا رب، فغفر له ذلك»[(١)].

ولكن ما علاقة الخوف في هذا الحديث باليقين؟

اعلم أخي أن الخوف لا يكون إلا بعد اليقين، فمردُّ الفضل كله إلى اليقين الذي يزرع الخوف في الأفئدة، وفي آخر طريق الخوف ينتظرك غفران الذنوب على شوق ولهفة، فمن ثمرات اليقين إذن غفران الذنوب أو حبوط الذنوب.

كما في لغة صاحب معاذ بن جبل ﷺ [ت: ١٨] الذي جاءه رجل، فقال لمعاذ: أخبرني عن رجلين أحدهما مجتهد في العبادة كثير العمل قليل الذنوب إلا أنه ضعيف اليقين يعتريه الشك في أموره؟

(١) صحيح: رواه الشيخان وابن ماجة عن أبي هريرة كما في صحيح ابن ماجة رقم: ٣٤٥١.

فقال معاذ: ليحبطن شكه أعماله.

قال: فأخبرني عن رجل قليل العمل إلا أنه قوي اليقين وهو في ذلك كثير الذنوب، فسكت معاذ، فقال الرجل:

والله لئن أحبط شك الأول أعمال بره ليحبطن يقين هذا ذنوبه كلها. قال: فأخذ معاذ بيده وقام قائمًا، ثم قال: ما رأيت الذي هو أفقه من هذا[1].

٢- صلاح هذه الأمة:

قال رسول الله ﷺ: «**صلاح أول هذه الأمة بالزهد واليقين، ويهلك آخرها بالبخل والأمل**»[2]

ويبين لنا سبب هذا الصلاح واعظ دمشق **أحمد بن عاصم الأنطاكي** [ت: ٢٢٧] الذي كان يسميه أصحابه جاسوس القلوب لمعرفته بأمراض القلوب وأسقامها. قال رحمه الله: «يسير اليقين يخرج كل شك من القلب»[3].

وكأن اليقين نوع من السحر تكفي لمسة واحدة منه فحسب لنسف كل آثار الشك ومظاهر ضعف الإيمان، أو إن شئت قلت:

فيه بركة الوصية النبوية «**صلاح أول هذه الأمة..**» التي يفضل اتباعها يحصل المراد ويتحقق المطلوب. وإذا خرج الشك من القلب تفجرت كل طاقات البذل،

---

(١) قوت القلوب ص ٢٧٥: ٢٧٦ أبو طالب المكي. ط دار إحياء الكتب العربية.
(٢) حسن: رواه أحمد والطبراني في الأوسط، وحسنه الألباني في ص ج ص رقم: ٣٨٤٥.
(٣) نزهة الفضلاء ٢/ ٩٥٥.

وتحررت الروح من أسر الشهوات، وانطلقت إشارة الانطلاق لتعلن بدء السباق إلى الجنات.

قال **سفيان الثوري** [ت: ١٦١]: لو أن اليقين استقر في القلب كما ينبغي لطار فرحًا وحزنًا. شوقًا إلى الجنة أو خوفًا من النار.

والمتأمل في منهج تربية النبي ﷺ لأصحابه يرى أنه ظل طوال ثلاثة عشر عامًا في مكة يبني هذا الأساس المتين المسمى: اليقين، والذي بني عليه صرح الإسلام العظيم، فكان هو الزاد الذي بلغ الصحابة أروع درجات البذل والتضحية والفداء، والذي لولا النقل الصحيح المتواتر لقلنا ذاك ضرب من خيال بل هو الشيء المحال، هذا المنهج التربوي هو - بلا ريب - أعظم طريقة لتفجير طاقات النفس المؤمنة وتأجيج حماسها، بل لا سبيل إلى ذلك غيره.

أمنا تشـــرح

قامت أم المؤمنين **عائشة** رضي الله عنها [ت: ٥٨] بشرح هذا المنهج في إبانة ووضوح فقالت:

«إنما نزل أول ما نزل منه (القرآن) سورة من المفصَّل فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء: لا تشربوا الخمر لقالوا: لا ندع الخمر أبدًا، ولو نزل: لا تزنوا

لقالوا: لا ندع الزنا أبدًا»[1].

فكما أنه لا بد للدابة أن تُعلف حتى تعمل، ولا بد للإنسان من الماء والهواء كي يظل حيًّا، فكذلك القلب المؤمن لا بد له – كي يعيش – من جرعة يقين يتسنى له بها أن يتحرك وسط أمواج المادية الطاغية دون أن يبتل، ويواجه عواصف الشهوات العارمة دون أن يناله رذاذها، ويترك عبيره في الناس حوله دون أن يفقد عطره، فيظل ناجيًا وسط الهلكى، صحيحًا بين المرضى، نبع هداية لا ينضب مهما غرف منه العطاش ونهل منه المسترشدون، وهل كان هذا إلا حال أصحاب النبي ﷺ الذين كان الواحد منهم ببركة يقينه يزن أمة، تهتز الجبال من حوله وهو ثابت، وتميد الأرض بأهلها بينا هو لا يميد، جسده في الأرض لكن روحه تسرح في الملكوت.

وفي زيادة إبانة ووضوح لمكانة اليقين في الإسلام كان الصحابي الجليل **عبد الله بن مسعود** ﷺ [ت: ٣٢] يقول:

« اليقين الإيمان كله»[2].

وليس الصحابة وحدهم من حفَّزوك ورغَّبوك في حيازة كنز اليقين، بل شاركهم في ذلك زين التابعين وسليل بيت النبوة **الحسن البصري** [ت: ١١٠] الذي قال:

(١) صحيح: رواه البخاري عن يوسف بن ماهك رقم: ٤٦٠٩.
(٢) فتح الباري ١/ ٤٨.

«باليقين طُلبت الجنة، وباليقين هُرب من النار، وباليقين أُدِّيت الفرائض على أكمل وجه، وباليقين أَصبرُ على الحق»[1].

٣- عينان في القلب:

قال شيخ أهل الشام **خالد بن معدان** [ت: ١٠٥]:

«ما من آدمي إلا وله أربع أعين: عينان في رأسه يبصر بهما أمر الدنيا، وعينان في قلبه يبصر بهما أمر الآخرة، فإذا أراد الله بعبده خيرًا فتح عينيه اللتين في قلبه فأبصر بهما ما وعد بالغيب، فآمن الغيب بالغيب»[2].

أين عينا قلبك؟ آه لو كان في قلبك قنطار يقين... مثقال يقين ... ذرة يقين ... لبلغت مقام الصالحين ولزاحمت في الجنة المتقين، ولما شغلتك دنيا عن آخرة، ولما ألهتك غانية عن جارية، لأن عَيْنَي قلبك مفتوحتان ليس فيهما عمش أو قصر نظر.

* عينا رأسك تُريانك المال الحرام نعيمًا، وترفًا، لكنَّ عيني قلبك تُريانك إياه جمرة من نار تحرق بها نفسك.
* عينا رأسك تُريانك الخلوة غيابًا عن الرقيب وفرصة للانفكاك من عيون البشر، لكن عيني قلبك تُريانك الله عليك شهيدًا ولأعمالك رقيبًا فلا فارق عندك بين سر وجهر أو باطن وظاهر.

(١) نزهة الفضلاء ٢/ ٥٥٢.
(٢) صفة الصفوة ٢/ ٣٧٤- ط دار الحديث.

* عينا رأسك تُريانك الجهاد في سبيل الله قمة الهلاك، وإراقة للدم في غير فائدة، وفراقًا للأهل والزوجة والأبناء دون مقابل، لكن عيني قلبك تريانك الجهاد في سبيل الله ذروة سنام الإسلام وسبيل سكنى الفراديس ومهر الحور العين.

* عينا رأسك تريانك الفقر مفسدة وقلة المال تهلكة وشظف العيش غضبًا من الله، لكن عيني قلبك تُريانك إياه اختبار رضا وصيانة لك من مال لا تؤدي حقه ولونًا من ألوان الجهاد.

* عينا رأسك تريانك الدنيا هي العليا والآخرة هي السفلى، لكن عيني قلبك تُريانك الدنيا ممرًّا لا مقرًّا، وسرابًا لا حقيقة، ومزرعة تبذر فيها بذور خير تحصدها ثمارًا تتدلى من شجر الجنة إن شاء الله.

موجز القول:

اليقين هو العين الثاقبة التي تريك الأعمال على حقيقتها، فما كان لك في الآخرة أمضيته، وما كان عليك في الآخرة أعرضت عنه وطرحته، كم من عين مبصرة وبصيرتها عمياء، وقلب ينبض ولا روح فيه، وأناس يمشون على الأرض وهممهم في القبور منذ زمن.

ما أصدق قول الشاعر يصف الموقن بقوله:

متيقّظ العزمات مذ نهضت به ... عزماته نحو العلا لم يقعد

ويكاد من نور البصيرة أن يرى ... في يومه فعل العواقب في غد

وحين يتوارى اليقين ويغيب عن الذهن الأجر الأخروي والثواب الرباني؛ ما الذي يحدث؟ اسمع – على لسان رسولك- ما الذي يحدث؛ قال ﷺ: «**ليأتين على الناس زمان...، ما أتاهم من رزق جعلوه في الحيوان، يرون الجهاد ضررا، والزكاة مغرما**»[1]

فهل نحن في هذا الزمان وهل استسلمنا للعيش فيه؟! أم أننا علينا أن نسعى لتغيير هذا الواقع المرير ، وذلك بأن نجعل ما آتانا الله من رزق في الآخرة ، وننظر إلى الأمور بالمنظار الصحيح ، فنرى الجهاد في سبيل الله نفعا لا ضررا ، والزكاة التي نبذلها مغنما لا مغرما.

(١) صحيح: السلسلة الصحيحة رقم ٣٣٥٧، والمقصود بالحيوان: الحياة الدنيا.

بصائر ثاقبة

* بصيرة خالد بن الوليد ﷺ [ت: ٢١] وقد صاغه الإيمان خلقًا آخر فإذا آماله وطموحاته آمال مَلَكٍ لا آمال بشر. قال ﷺ:

«ما من ليلة يُهدي إليَّ فيها عروس أنا لها محب أحب إليَّ من ليلة شديدة البرد كثيرة الجليد في سرية أصبِّح فيها العدو»(١).

* بصيرة سعيد بن عامر ﷺ [ت: ١٩] وقد عاتبته امرأته يومًا في تصدقه بماله كله قائلة له: إن لأهلك عليك حقًا، وإن لأصهارك عليك حقًا، فيجيبها وقد رضع من اليقين رضعات مشبعات فشب عليه وبلغ أشده:

«على رسلك !! إنه كان لي أصحاب فارقوني منذ قريب ما أحب أني صددتُ عنهم وأن لي الدنيا وما فيها، ولو أن لي خيِّرة من خيِّرات الحسان اطلعت من السماء لأضاءت لأهل الأرض، ولقهر ضوء وجهها الشمس والقمر، ولنصيفها خير من الدنيا وما فيها، فلأنت أحرى في نفسي أن أدعك لهن من أن أدعهن لك»(٢).

* بصيرة أبي عبد الله عبد الرحمن بن عسيلة [ت: ٨٠] وقد رفع اليقين عنه الحجُب التي تستر الغيب ، فإذا الغيب مُتجلٍّ أمام عينيه. قال صاحبه عبادة:

---

(١) سير أعلام النبلاء ١/ ٣٧٥.

(٢) حياة الصحابة ٣/ ٤٨٧. الكاندهلوي. ط دار القلم.

«من أحب أن ينظر إلى رجل كأنما عُرج به إلى أهل السماء فنظر إلى أهل الجنة وأهل النار، فرجع وهو يعمل على ما يرى فلينظر إلى هذا»(١).

* بصيرة أبي مسلم الخولاني [ت: ٦٢] وقد غلب يقينه بثواب صبره ألمه بفقد ولده، فصار يحب موت الولد وفقد الأحبة !! قال رحمه الله:

«لأن يولد لي ولد يحسن الله بناءه حتى إذا استوى على شبابه وكان أعجب ما يكون إليَّ قبضه مني؛ أحب إليَّ من أن يكون لي الدنيا وما فيها»(٢).

٤- وقاية من عذاب القبر:

عن أبي هريرة رضي الله عنه [ت: ٥٨] عن النبي ﷺ قال:

«إن الميت يصير إلى القبر، فيجلس الرجل الصالح في قبره غير فزع ولا مشعوف(٣)، ثم يقال له: فيم كنت؟ فيقول: كنت في الإسلام، فيقال له: ما هذا الرجل؟ فيقول: محمد رسول الله ﷺ جاءنا بالبينات من عند الله فصدقناه، فيقال له: هل رأيت الله؟ فيقول: ما ينبغي لأحد أن يرى الله، فيفرج له فرجة قبل النار فينظر إليها يحطم بعضها بعضًا، فيقال له: انظر إلى ما وقاك الله، ثم يفرج له قبل الجنة فينظر إلى زهرتها وما فيها، فيقال له: هذا مقعدك، ويقال له: على (اليقين) كنت وعليه مت وعليه تبعث إن شاء الله. ويجلس الرجل السوء في قبره فزعًا مشعوفًا، فيقال له: فيم كنت؟ فيقول: لا أدري، فيقال له: ما هذا الرجل؟ فيقول: سمعت الناس يقولون قولاً فقلته، فيفرج له قبل الجنة فينظر

---

(١) حلية الأولياء ٥/ ١٢٩.

(٢) حلية الأولياء ٢/ ١٢٧.

(٣) قال السيوطي: الشعف هو شدة الفزع حتى يذهب بالقلب.

إلى زهرتها وما فيها، فيقال له: انظر إلى ما صرف الله عنك، ثم يفرج له فرجة قبل النار فينظر إليها يحطم بعضها بعضًا، فيقال له: هذا مقعدك .. على الشك كنت وعليه مت وعليه تبعث إن شاء الله تعالى»[1].

أخي.. هل عرفت الآن قدر اليقين؟!
من أي الزادين اغترفت؟!
من أي البضاعتين اشتريت؟!
من الشك أم من اليقين؟!
أنت الذي بيدك وحدك أن تشتري والسوق حاضرة والثمن موجود وصاحب السلعة يرغّبك فيها، فهل أنزلت اليقين في قلبك قدره الذي يستحق؟!
هل بحثت عنه ودرست كيف تصل إليه؟!
اليقين .. حارسك في قبرك ... ينافح عنك ملائكة العذاب، ويصرف عنك ألوان العقاب، هو زادك في الحفرة المظلمة، وكنزك في سوق الآخرة...
والآن .. بكم من رصيد اليقين ستنزل القبر؟!

ولذا تنادَى النفس الموقنة بهذا الوصف قبل نزولها قبرها ومعاينتها الحساب، وذلك عند الاحتضار ونزع الروح: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ﴿٢٨﴾ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر: ٢٧- ٣٠].

(١) صحيح: صحيح ابن ماجة رقم: ٣٤٦٢ والمشكاة رقم: ١٣٨

قال الحسن: «هي المؤمنة الموقنة»[1]، وهو قول قتادة [ت: ١١٠] كما حكاه عنه ابن الجوزي في زاد المسير[2]، وقول مجاهد كذلك فيها: «هي التي أيقنت وضربت لذلك جأشًا»؛ أي اطمأنت إلى اليقين[3].

ويتحول يقينها عندئذٍ كشفًا وشهادة، وذلك بعد ارتفاع الحجب عند الموت. قال ابن زيد [ت: ١٨٢] في النفس المطمئنة: «المطمئنة بربها، بُشِّرت بالجنة عند الموت وعند البعث»[4].

إن قصة اليقين بدأت منذ النطق بالشهادة، ومن ساعتها ظهر فضله ودوره في دخول الجنة، وهذا هو السر الذي أفشاه لنا معاذ بن جبل ﷺ [ت: ١٨] عند الموت، حيث قال جابر ﷺ [ت: ٩٤]: «أنا ممن حضر معاذًا ﷺ عند موته، قال: ارفعوا عني سجف القبة - طرف القبة ليخاطب الناس - ارفعوا عني أحدثكم حديثًا سمعته من رسول الله ﷺ ما منعني أن أحدثكم به إلا أن تتكلوا، سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«من شهد أن لا إله إلا الله موقنًا بها من قلبه دخل الجنة»[5].

وفي حديث أبي هريرة [ت: ٥٨]: **«اذهب بنعليَّ هاتين، فمن لقيتَ من وراء الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مستيقنًا بها قلبه فبشِّره بالجنة»**[6].

(١) فتح القدير ٥/ ٦٢٥
(٢) زاد المسير ٩/ ١٢٣
(٣) غريب الحديث لابن الجوزي ١/ ١٥٦
(٤) فتح القدير ٥/ ٦٢٥
(٥) الصحيحة رقم: ٢٣٥٥
(٦) رواه مسلم عن أبي هريرة كما في ص ج ص رقم: ٨٥٧.

٥- سرعة التلبية:

قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ [النساء: ٦٦].

قال القرطبي [ت: ٦٧١]:

«ولو: حرف يدل على امتناع الشيء لامتناع غيره، فأخبر الله سبحانه وتعالى أنه لم يكتب علينا ذلك رفقًا بنا لئلا تظهر معصيتنا، فكم من أمر قصَّرنا عنه مع خِفَّته، فكيف بهذا الأمر مع ثقله؟!»(١).

ولقد فاخرت يهود بهذا على عهد النبي ﷺ فقال قائلهم: والله لقد كُتِب علينا أن نقتل أنفسنا فقتلنا، وبلغت القتلى سبعين ألفا، فدمغه **زيد بن ثابت** رضي الله عنه [ت: ٤٥] بقوله:

«والله لو كتب الله علينا أن اقتلوا أنفسكم لفعلنا»(٢).

وليس **زيد** رضي الله عنه وحده هو من جدَّد عهد اليقين مع الله بل كذلك **عمار بن ياسر** رضي الله عنه [ت: ٣٢] الذي كان يسير يومًا على شاطئ الفرات فقال:

«اللهم لو أعلم أن أرضى لك عني أن أتردى فأسقط لفعلت، ولو أعلم أن أرضى لك عني أن أوقد نارًا فأقع فيها لفعلت، اللهم ولو أعلم

(١) تفسير القرطبي ص ١٨٤٠.
(٢) تفسير القرطبي ص ١٨٤٠.

أن أرضى لك عني أن ألقي نفسي في هذا الماء فأغرق فيه لفعلت»[1].

ولـو قيـل طـأ في النـار أعلـم أنـه ... رضـا لـك أو مُـدنٍ مـن وصـالك
لقـدَّمت رجلـي نحوهـا فوطأتهـا ... سـرورًا لأنـي قـد خطـرت ببالـك

(١) الزهد ص ٢٢٠. أحمد بن حنبل. ط دار الريان.

ارتباط اليقين بالعمل

وكل يقين ليس معه عمل ليس بيقين ولا شبه يقين، فليس شيء أدل على شيء من العمل على اليقين، ويشهد لهذا قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [النمل: ٣]، فاليقين بالآخرة يعني المسارعة إلى الخيرات والمبادرة إلى الأعمال الصالحة، وإنما ذكر اليقين في سياق إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، ليعلم أنه علم وعمل، فهم وسعي، نظرية وتطبيق.

قال **الإمام الشوكاني** [ت: ١٨] في تفسير هذه الآية:

« ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [النمل: ٣]، في محل نصب على الحال، وكرر الضمير للدلالة على الحصر؛ أي لا يوقن بالآخرة حق الإيقان إلا هؤلاء الجامعون بين الإيمان والعمل الصالح، وجعل الخبر مرفوعًا للدلالة على التجدد في كل وقت وعدم الانقطاع»(١).

٦- تربية الأنبياء:

حيث ربى الله على اليقين أنبياءه ورسله، وما من نبي إلا وقد أراه الله ما نزع به من قلبه آخر ذرة شك، ليكون كل منهم في النهاية نبع يقين يروي أمته التي أرسل إليها، ونكتفي هنا بذكر نبيين اثنين من أولي العزم من الرسل:

---

(١) فتح القدير ٤/ ١٧٩

الأول: إبراهيم عليه السلام. قال الله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

قال القاضي عياض [ت: ٥٤٤]:

«لم يشك إبراهيم بأن الله يحيي الموتى، ولكن أراد طمأنينة القلب وترك المنازعة لمشاهدة الإحياء فحصل له العلم الأول بوقوعه، وأراد العلم الثاني بكيفيته ومشاهدته، ويُحتمل أنه سأل زيادة اليقين وإن لم يكن في الأول شك، لأن العلوم قد تتفاوت في قوتها، فأراد الترقي من علم اليقين إلى عين اليقين والله أعلم»(١).

ونفس المعنى يؤكده **سهل بن عبد الله التستري** [ت: ٢٨٣] فيقول: «سأل كشف غطاء العيان ليزداد بنور اليقين تمكنًا»(٢).

ومن عجبٍ أن رسولنا ﷺ قال:

«**نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال:** ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠]»(٣).

اختلف العلماء في معنى «**نحن أحق بالشك من إبراهيم**» على أقوال كثيرة

(١) فتح الباري ٦/ ٤١٣.   (٢) شرح النووي على صحيح مسلم ٢/ ١٤٨.

(٣) صحيح: رواه الشيخان وأحمد وابن ماجة عن أبي هريرة كما في ص ج ص رقم: ٦٧٥٠

أحسنها وأصحها ما قاله الإمام أبو إبراهيم المزني [ت: ٢٦٤] صاحب الشافعي [ت: ٢٠٤]:

«معناه أن الشك مستحيل في حق إبراهيم فإن الشك في إحياء الموتى لو كان متطرقًا إلى الأنبياء لكنت أنا أحق به من إبراهيم، وقد علمتم أني لم أشك فاعلموا أن إبراهيم عليه السلام لم يشك»(١).

وموقف آخر يغرس الله به نور اليقين في قلب نبيه إبراهيم، فإبراهيم عليه السلام كان مؤمنًا، وعلامة إيمانه أنه صدع بالحق ودعا إليه: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٧٤]، لكن الله أراد له أن يرتقي به من درجة إلى درجة أعلى، ومن حال إلى حال أسمى بأن يكون من الموقنين، ولهذا قال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥].

واليقين درجة أعلى من الإيمان، ومرتبة عظمى لا يصل إليها الكثيرون، وقد جعل الله سبحانه وسيلة اكتسابه أن يُري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض، حتى إذا أيقن بعد أن رأى عظمة الخلق وتأمل فيها، جزم جزمًا قاطعًا أن قومه على ضلالة وتبرأ منهم، وبهذا فحسب آتاه الله حجته عليهم، ورفع درجته بين خلقه. ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ [الأنعام: ٨٣].

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم ٢/ ١٨٣.

وأثمرت هذه التربية الربانية أعلى درجات الامتثال والتلبية، وقد ظهر ذلك جليًّا عندما أمر الله إبراهيم عليه السلام بذبح ولده، ولقد كان إسماعيل الابن الوحيد لإبراهيم ولم يرزق به إلا على كبر، فما ظنك بتعلق أب كهذا بابنه؟! ولم يأت الأمر صريحًا عن طريق جبريل عليه السلام، ولكن جاء برؤيا منام: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ﴾ [الصافات: ١٠٢]، نعم .. مجرد رؤيا، ومع ذلك لم يتأول الأمر ويقل: لعلها من الشيطان، أو فلأنم هذه الليلة فإن تكررت الرؤيا فعلت ما أُمرت به، ولكن اليقين جعله يمتثل الأمر على الفور، ولأن الابن ينتسب لأبيه ويقلد صنيعه، فقد أجاب إسماعيل الدعوة إلى قتله وهو المذبوح: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُ﴾ [الصافات: ١٠٢].

وفي هذا إشارة إلى أن كل عطية من المولى لا بد لها من استحقاقات وتبعات؛ ولذا لما منح الله أنبياءه شرف النبوة جعلهم أكثر الناس بلاء، ولما أكرم أمهات المؤمنين برفقة نبيه ضاعف لهم في المقابل – إن هن أذنبن – العذاب ضعفين، ولما رزق عباده مضاعفة الأجر في مكة والمدينة ضاعف كذلك الذنوب هناك، والأمثلة على هذا كثيرة.

ولتُصنع على عيني

الثاني: وكما ربّى الله إبراهيم عليه السلام ربّى موسى عليه السلام، وعلى فترات متباعدة، وبحكمة ربانية متناهية، وعن طريق موقف من بعد موقف، ليكون اكتمال اليقين مع انتهاء الدروس الثلاثة، فماذا كانت هذه الدروس؟!

الدرس الأول:

ألقى موسى العصا فانقلبت ثعبانًا، فخاف، نعم خاف موسى خاف وهو النبي الموحى إليه من ربه، فأتاه النداء العلوي: ﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾ [طه: ٢١] .. يا موسى: ثق في موعود الله كن مع مراد الله .. أمسك الثعبان .. من رأسه .. نعم .. أمسكه من رأسه .. لا تضطرب .. إياك أن ترتاب لحظة .. اقهر خوفك .. اهزم شكك .. أطع ربك .. أغظ شيطانك، فلما لبى موسى نداء الله وأمسك الثعبان انقلب مرة أخرى في يديه خشبة!!

الدرس الثاني:

وقت مواجهة السحرة أمام فرعون .. رأى موسى الأفاعي من حوله فخُيِّل إليه من سحرهم أنها تسعى .. فخاف مرة أخرى .. أهاله تجمع الأعداء .. أفزعته حشود الكفر وتسرب الخوف إلى قلبه .. لم يكتمل صنعه على عين الله بعد .. فجاءه الصوت الإلهي الرهيب: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [طه: ٦٨]

لتسري هذه الكلمات اطمئنانًا يجري في العروق ويقينًا يغمر القلب.

فقلت للقلب لما خاف مضطربًا	وخانني الصبر والتفريط والجلد
دعها سماوية تجري على قدر	لا تعترضها بأمر منك تتفسد
فحفّني بخفيّ اللطف خالقنا	نعم الوكيل ونعم العون والمدد

✍ **الدرس الثالث:**

ثم جاءت اللحظة التي سيظهر فيها نتاج التربية الربانية وغرس العناية الإلهية .. فالبحر من أمامه وفرعون وجنوده من خلفه .. اضطرب أصحابه لكنه ازداد هدوءًا .. فزعوا لكنه ابتسم .. اهتزوا لكنه ثبت .. صرخوا فزعين: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء: ٦١] فانبرى الآن بعد أن اكتمل صنعه على عين ربه وتمت صياغته وفق مراد الله قائلاً في يقين: ﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢] يقولها وملء قلبه الثقة بربه واليقين بعونه والتأكد من نجاته .. نعم هو لا يدري كيف ستكون النجاة لكنها كائنة لا محالة.

لا تُدبّر لك أمرًا	فأولو التدبير هلكى
سلِّم الأمر تجدنا	نحن أولى بك منكا[1]

٧- أعجب الخلق إيمانًا:

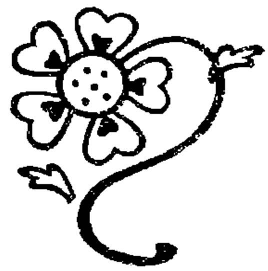
عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما [ت: ٦٥] قال: «قال رسول الله ﷺ: **أي الخلق أعجب إليكم إيمانًا؟** قالوا: الملائكة. قال: **وكيف لا يؤمنون وهم عند ربهم؟** قالوا: فالنبيون. قال: **وما لهم لا يؤمنون**

(١) الفجر القادم ص ٢٤، ٢٥ – للمؤلف – ط دار طيبة.

والوحي ينزل عليهم؟ قالوا: فنحن. قال: وما لكم لا تؤمنون وأنا بين أظهركم؟ قالوا: فمن يا رسول الله؟ قال: **ألا إن أعجب الخلق إليَّ إيمانًا لقوم يكونون من بعدكم؛ يجدون صحفًا فيها كتاب يؤمنون بما فيها**»(١).

ألا ما أجمل هذا الحديث، وأثلج نزوله على قلوب المؤمنين، وهم يسمعون مديح الرسول ﷺ لهم، وتثبيته لقلوبهم التي تهب عليها زوابع الشك العاتية صباح مساء، إنها اللمسة الحانية التي تمسح التعب عن الأجساد والأرواح، وشهادة التقدير التي تزيل الهموم والألم، وهل مُدح هؤلاء إلا بسبب يقينهم؟! وهل فاق إعجاب رسول الله بهم إعجابه بالملائكة والنبيين والصحابة إلا من أجل إيمانهم بالغيب وتصديقهم؟!

إن منزلة اليقين عالية، سامية غالية؛ ولذا كانت أول صفة مُدح بها المؤمنون في القرآن: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ [البقرة: ٣]، بل هي أصل الإيمان كما قال ابن القيم [ت: ٧٥١]:



«فالإيمان قلب الإسلام ولبه، واليقين قلب الإيمان ولبه، وكل علم وعمل لا يزيد الإيمان واليقين قوة فمدخول، وكل إيمان لا يبعث على العمل فمدخول»(٢).

---

(١) حسن: حسنه الألباني في الصحيحة ٧/ ٦٥٤ – ٦٥٧ رقم: ٣٢١٥، وكان قد ضعفه في الضعيفة ٢/ ١٠٢– ١٠٣ رقم: ٦٤٧، ثم تراجع عن تضعيفه فقواه.

(٢) الفوائد ٨٥، ٨٦.

٨- دواء الشك الناجع:

قد غدا الشك من أخطر أمراض العصر اليوم، وقد غزا قلوب الكثيرين لخلوها من الزاد النافع، والشيطان يدخل فورًا على الفارغ، فكيف إذا كان القلب محشوًّا بزاد الأبالسة من الشهوات والشبهات؟!

وهو من أخطر أمراض القلب على الإطلاق وأشدها فتكًا، وهو يأكل القلب كما تأكل النار الحطب، ويمزقه تمزيقًا، ولا يزال ينهشه، ويوقعه في براثن الكفر والعياذ بالله، وهو بلاء عم وطم، وصار يلعب بعقول ضعاف الإيمان وعطاش الروح من اليقين، ويضيع عليهم فرصة النجاة والظفر بالجنة، وأخطره الشك في وجود الله، ومنه الشك في قدرة الله، والشك في أي صفة وصف بها نفسه.

وقد مدح الله المؤمنين بأنهم لم يدخل قلوبهم شيء من الريب ولا خالطهم شك من الشكوك، وحصر الإيمان فيمن لم يشك حين قال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾ [الحجرات: ١٥]، وبذا يظهر أن انتفاء الارتياب في إيمانهم أعلى رتبة من الإيمان نفسه إذ به قوام الإيمان وقيامه.

قال الشيخ **علي الطنطاوي** [ت: ١٤١٩] وهو يشرح ذلك في براعة الطبيب وحكمة المربي وخبرة العالم:

«والشبهات أخطر بنتائجها لأنها تؤدي إلى الكفر، ولكن الشهوات أشد بطبيعتها، إذ إن الشبان لا يستجيب منهم للشبهة إلا قليل، أما ما يثير

الغرائز ويحرك الرغبات فيلقى الاستجابة عند الجميع، وإن كان منهم من يصبر ويقاوم، ويطوي جوانحه على مثل النار الآكلة ابتغاء ثواب الله وخوفًا من عقابه، الأولى كالمرض الذي يقتل ولكن عداوته بطيئة، والوقاية منه ممكنة، والثانية كالمرض الذي يضني وإن كان لا يُفني، ويُضعف وإن كان لا يُميت، والتوقي منه أصعب»(١).

---

(١) فصول إسلامية ص ٩٥، ٩٦ ط دار المنارة. الطبعة الثانية ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.

احذر.. ثغـــرة!!

ولو تتبعنا آيات القرآن لوجدناها تنفي الريب عن أمور ثلاثة، وتعيد ذلك مرارًا وتكرارًا، فتارة تنفي الريب عن الكتاب: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢]، ومرة تنفي الريب عن الساعة: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٢٥] وقال: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [النساء: ٨٧]، ومرة ثالثة تنفي الريب عن الأجل: ﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ [الإسراء: ٩٩]، ولكن لماذا نفي الريب والشك في هذه الثلاثة بالذات؟!

والجواب:

> **إنها الثغرات التي يهاجم الشيطان منها قلب الإنسان، فيبث فيه الشك في الحساب والجزاء، وإذا وهن اليقين بالجزاء فقل على كل من الدنيا والآخرة السلام.**

وكذلك الكتاب؛ إذا كان الشك في وروده من عند الله وهنت صلة الناس به وتعامل الناس معه على أنه كتاب بشري، يُقرأ أو يهجر، يُعتنى به أو يترك حتى يسكن التراب سطحه، وكذلك الأجل وهو فراق الدنيا؛ إذا كان الريب منه طال أمل العبد وساء عمله واشتد ظلمه وتكرر جهله، ولا تُسدُّ هذه الثغرات في وجه الشيطان إلا ببناء سدود اليقين المنيعة التي تمنع الاقتحام.

وتـردد ثم مضى!!

ففي غزوة مؤتة في العام الثامن من الهجرة لما قُتل جعفر أخذ عبد الله بن رواحة الراية، ثم تقدَّم بها وهو على فرسه، فجعل يستنزل نفسه ويتردد بعض التردد ويقول:

أقسمت يا نفس لتنزلنه ... لتنزلن أو لتكرهنه
إن جلب الناس وشدوا الرنة ... مالي أراك تكرهين الجنة
قد طال ما قد كنت مطمئنة ... ما أنت إلا نطفة في شنة

وقال:

يا نفس إلا تُقتلي تموتي ... هذا حمام الموت قد صَليت
وما تمنيت فقد أعطيت ... إن تفعلي فعلهما هُديت

يريد صاحبيه زيدًا وجعفرًا، ثم أخذ سيفه ثم تقدم فقاتل حتى قُتل رضي الله عنه. قال ﷺ «لقد رُفعوا إلى الجنة فيما يرى النائم على سرر من ذهب، فرأيت في سرير عبد الله ابن رواحة ازورارًا عن سريري صاحبيه، فقلت: عمَّ هذا؟! فقيل لي: مضيا وتردد عبد الله بن رواحة بعض التردد ثم مضى»[1].

لحظة واحدة من التردد وذرة من الشك كانت كفيلة بتأخير ابن رواحة عن صاحبيه، ولمحة من طرف العين هوت بمنزلته، ليحوز شهادة دون

(١) فقه السيرة ٣٦٨، وقد رواه ابن إسحاق منقطعًا.

شهادة، وفوزًا دون فوز، وإن كان الجميع في النهاية من ساكني الجنة، وهو ما يثبت أهمية اليقين وخطورة عمل القلب، وعظيم أثره، وكيف أن الذرة الواحدة منه ترفع مقامات وتهوي بمثلها، ولأنها مقامات الجنة ودرجاتها، فبين كل مقام وآخر أبعد ما بين السماء إلى الأرض.

هلك المرتابون

كان أبو عبد الرحمن معاذ بن جبل ﷺ [ت: ١٨] لا يجلس مجلسًا للذكر حين يجلس إلا قال: «الله حكم قسط، هلك المرتابون»(١)، ويكاد قوله هذا يكون تفسيرًا لقوله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ﴾ [الذاريات: ١٠].

أي خاب وخسر الذين لا يوقنون وهو شتم لهم وتعيير، والخراصون هم أهل الغرة والظنون كما قال ذلك قتادة(٢).

قال صاحب التحرير والتنوير:

«والخرص: الظن الناشئ عن وجدان في النفس مستند إلى تقريب ولا يستند إلى دليل يشترك العقلاء فيه، وهو يرادف: الحزر والتخمين، ومنه خرص النخل والعنب أي تقدير ما فيه من الثمرة بحسب ما يجده الناظر فيما تعوده، وإطلاق الخرص على ظنونهم الباطلة في غاية الرشاقة لأنها ظنون لا دليل عليها غير ما حسُن لظانيها»(٣).

ويشهد لهذا قول الله بعدها: ﴿يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ [الذاريات: ١٢]، تشكيكًا في يوم البعث وتكذيبًا له.

ومن المعلوم أن الظن لا يجتمع مع اليقين، ولا بد لأحدهما أن يطرد الآخر

---

(١) سنن أبي داود ٢/ ٦١٢.

(٢) ابن كثير ٤/ ٢٥٩.

(٣) التحرير والتنوير ١/ ١٤٠٢.

وينتصر عليه؛ ولذا قال المشركون: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ [الجاثية: ٣٢] ومن المسلمين اليوم من يردِّد نفس الكلمة بفعاله، وإن لم ينطقها بلسانه.

٩- شجرة فوائد ابن القيم:

أهدى لنا ابن القيم [ت: ٧٥١] عدة فوائد لليقين قدمها لنا في كتابه الرائق (مدارج السالكين) فقال:

«اعلم يا أخي أن اليقين من الإيمان بمنزلة الروح من الجسد، وبه تفاضل العارفون وفيه تنافس المتنافسون، وإليه شمَّر العاملون، وعمل القوم إنما كان عليه وإشاراتهم كلها إليه، وإذا تزوج الصبر باليقين: ولد بينهما حصول الإمامة في الدين.

قال الله تعالى - وبقوله يهتدي المهتدون - ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

وخص سبحانه أهل اليقين بالانتفاع بالآيات والبراهين، فقال وهو أصدق القائلين: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ [الذاريات: ٢٠].

وخص أهل اليقين بالهدى والفلاح من بين العالمين، فقال: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٤، ٥].

وأخبر عن أهل النار أنهم لم يكونوا من أهل اليقين، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا

قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ [الجاثية: ٣٢].

فاليقين روح أعمال القلوب التي هي روح أعمال الجوارح، وهو حقيقة الصديقية، وهو قطب هذا الشأن الذي عليه مداره»(١).

١٠ أفضل الأعمال على الإطلاق:

ولهذا يقول النبي ﷺ في الحديث: «**أفضل الأعمال عند الله: إيمان لا شك فيه، وغزو لا غلول فيه، وحج مبرور**»(٢).

والإيمان الذي لا شك فيه هو اليقين، ولأنه من أعمال القلوب، ولأنه من أفضل الأعمال؛ لذا تفاضل الناس عند الله به أضعاف أضعاف ما تفاضلوا بغيره، فعن **أبي الدرداء عويمر بن مالك** ﷺ [ت: ٣٢] أنه قال:

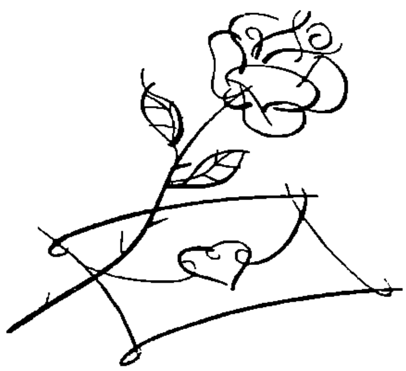
«يا حبَّذا نوم الأكياس وإفطارهم!! كيف يعيبون سهر الحمقى وصيامهم؟! ومثقال ذرة من برٍّ صاحب تقوى ويقين أعظم وأفضل وأرجح من أمثال الجبال من عبادة المغترين»(٣).

قال ابن القيم مثمِّنًا كلام أبي الدرداء ومنزلاً إياه قدره ومفسحًا له المجال ليزين كتابه الفوائد:

(١) مدارج السالكين ٢/ ٣٩٧.
(٢) رواه أحمد في المسند ٢/ ٢٥٨.
(٣) حلية الأولياء ١/ ٢١١.

«وهـذا مـن جـواهر الكـلام، وأدلـه علـى كمـال فقـه الصـحابة، وتقدمهم على من بعدهم في كل خير رضي الله عنهم، فاعلم أن العبد إنما يقطع منازل السير إلى الله بقلبه وهمته لا ببدنه»[1].

ولهذا وصـفه أبـو حامـد الغـزالي [ت: ٥٠٥] بـأعظم وصـف وأنزلـه أسمى مكانة حين سماه: رأس مال الدين، فأوصاك «**أن تكون شديد العناية بتقويته، فإن اليقين رأس مال الدين**»[2].



(١) الفوائد ١/ ١٤١

(٢) إتحاف السادة المتقين ١/ ٤٠٨ ط دار الفكر.

اليقين إحسان القلوب

إن أول ما تبدأ به أعمال القلوب جميعًا وتصح هو العلم؛ ولذا فإن الإمام البخاري [ت: ٢٥٦] جعل ترجمة في صحيحه: «**باب العلم قبل القول والعمل وقول الله - تبارك وتعالى -** ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾» [محمد: ١٩].

فأول ما يطرق قلب المؤمن من معرفة الرب تبارك وتعالى والإيمان به هو العلم، وهو أن يعلم أنه لا إله إلا الله، وأن النار حق، وأن الجنة حق، وأن البعث بعد الموت حق، وأن الرسل حق، وأن كل ما أخبر الله تبارك وتعالى به أو أخبر به رسوله ﷺ حق.

لكن هذا العلم – كما مر بك – درجات، منه ما يكفي للدخول في الإسلام، فإذا زاد أوصل إلى الإيمان، فإذا زاد قاد إلى درجة أعلى من الإيمان وهي الإحسان، والإحسان في أعمال القلوب هو اليقين، وفي أعمال الجوارح كما ورد في حديث جبريل: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك، ولأنه لا انفكاك بين أعمال القلوب وأعمال الجوارح، ولأن أعمال الجوارح تتبع أعمال القلب حيث تأتمر بأمره وتنتهي بنهيه، كان اليقين أشرف المقامات وأعلاها.

الفصل
الثاني

غرس اليقين

كيف غرس النبي ﷺ اليقين في قلوب الصحابة، فأثمر ثمارًا يانعة لا يزال عبيرها يفوح إلى الآن: بذلاً وجودًا، وخشية وتضحية، ومراقبة واستقامة، ونماذج لولا النقل الصحيح المتواتر لقلنا: ذاك ضرب من خيال أو هو الشيء المحال.

غَرسُ اليقيـــن

عليك وأنت تقرأ هذا الباب الآن أن تقرأه بروح جديدة، وقلب كأنـه وُلد اليوم ولم يتلطَّخ بخطيئة بعد، وخـذ وصـف ذلـك مـن لسـان الأسـتاذ البهي الخولي الذي حثَّك على قراءة السيرة بهذه الطريقة باستخدام قلبـك قبل عينيك، وبروحك وعاطفتك مع عقلك، وأرشدك إلى هذا الطرح الحي الذي يثمر القلب الحي فقال:

«أن تُكثر مصاحبة مولانا رسول الله ﷺ في سـيرته المطهـرة مصـاحبة وجدانية عميقة، تجعلك في مجلسه عليه السلام إذا جلـس، وفي ركابـه إذا ركـب، وفي معيته إذا سار، وتسمعك قوارع وعظه، وتُسرِّب إلى قلبك رقة مناجاته إذا ناجى ربـه في جـوف الليـل، أو في خلـوات النهـار، وتصـل عواطفـك بعواطفه صلوات الله عليه، حتى تكـاد تشـعر بخلجـات قلبـه العظـيم إذا غضب، وبشاشته وسماحته إذا تسهل لشيء وتهلل، وتسلكك في صـفوف المؤمنين به، فأنت معهم حين يسامون العذاب، تـألم كمـا يـألمون، وتهـاجر كما يهاجرون، تهاجر معهم بوجدانك وخيالك وعواطفـك إلى الحبشـة أو غيرها من بلاد الله، فإذا شُرع له الجهاد في المدينة، فأنت تحت لوائـه المظفـر تشهده ممتطيًا صهوة جواده، وقد لبس لأمة الحرب، وتقلَّد السيف، وأخـذ برمحه، فهو فارس الميدان، وقائد الفرسان، تزهر عيناه الشريفتان مـن تحـت مغفره ﷺ، فما يصعد شرفًا ولا يهبط واديًا، ولا ينـال مـن عـدو نـيلاً إلا

وأنت معه عليه السلام، تكاد تضرب إذا ضرب، وتُقدم إذا أمر، وتفديه بما تملك، وتحوطه بكل ما في سويداء قلبك من حب وعاطفة»[1].

وإلى أول الدروس النبوية:

١- أين عقلك؟

قال النبي ﷺ لأصحابه يومًا:

«**أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله؟**» قالوا: يا رسول الله .. ما منا من أحد إلا وماله أحب إليه من مال وارثه، فقال ﷺ: «**فإن ماله ما قدَّم ومال وارثه ما أخَّر**»[2].

رسول الله ﷺ يقوم بدوره في زرع اليقين، فيخاطب عقول أصحابه ويوقظ أفهامهم ويسألهم:

هل منكم أحد ينتفع بماله بعد موته؟! أو يستلذ بإنفاقه وهو في التراب؟! أو يغدقه على أقرانه وأصحابه وهو مُغَطًّى بالأكفان؟! فأجابوه وأجابهم بما ينزع الشك من الصدور ويغرس اليقين في الأفئدة بدلاً منه.

قال ابن بطال [ت: ٤٤٩]:

«فيه التحريض على تقديم ما يمكن تقديمه من المال في وجوه القُربة والبر لينتفع به في الآخرة، فإن كل ما يُخلِّفه المُوَرِّث يصير ملكًا للوارث، فإن عمل فيه بطاعة الله اختُص بثواب ذلك، وإن عمل فيه بمعصية الله

(١) تذكرة الدعاة ص ٢٠٤. ط مكتبة التراث.

(٢) صحيح: رواه البخاري والنسائي عن ابن مسعود كما في ص ج ص رقم: ٢٦٩٦.

فذاك أبعد لمالكه الأول من الانتفاع به إن سلم من تبعته»[1].

رحم الله أبا الفرج ابن الجوزي [ت: ٥٩٧] حين قرأ الحديث السابق فقال معلقًا وشارحًا ومبينًا:

«عقاب الوارث على مرقب الانتظار !! أفهمت أم أشرح لك؟ العقاب لا تعاني الصيد وإنما تكون على موضع عالٍ، فأي طائر صاد طيرًا انقضت عليه، فإذا رآها هرب وترك الصيد»[2].

هل تعرف معنى الكلام السابق؟! معناه أن مالك الذي تجمع، وثروتك التي تخدع إنما مصيرها في النهاية إلى الورثة: عليها يختلفون ومن أجلها يقتتلون.. تلم ليجمعوا .. وتجمع ليبددوا وتتعب ليرتاحوا.

ولأن زكاة العلم العمل به، ولأن **الواقدي** رجل تخرج من مدرسة اليقين بامتياز، فقد دفع زكاة العلم بهذا الحديث وزيادة ... دفعها بذلاً وجودًا وكرمًا.

واسمع ما حدَّثك به **الخطيب البغدادي** [ت: ٤٦٣] وأمسك بقلبك أن يطير من شدة العجب، ولعينك أن تزيغ من روعة الدهشة: قال القاضي **أبو عبد الله محمد بن عمر الواقدي** [ت: ٢٠٧].

«أضقت مرة من المرار وأنا مع **يحيى بن خالد البرمكي**، وحضر عيد

(١) فتح الباري ٧/ ٢٦٥. ابن حجر العسقلاني. ط دار الريان.
(٢) المدهش ص ٢٨٥. ابن الجوزي. ط دار الكتب العلمية.

فجاءتني جارية فقالت: قد حضر العيد وليس عندنا من النفقة شيء فمضيت إلى صديق لي من التجار فعرفته حاجتي إلى القرض فأخرج إليَّ كيسًا مختومًا فيه ألف ومائتا درهم، فأخذته وانصرفت إلى منزلي فما استقررت فيه حتى جاءني صديق لي هاشمي، فشكا إليّ تأخر غلته وحاجته إلى القرض، فدخلت على زوجتي فأخبرتها فقالت: على أي شيء عزمت؟ قلت: أن أقاسم الكيس. قالت: ما صنعت شيئًا. أتيت رجل سوقة فأعطاك ألفًا ومائتي درهم وجاءك رجل له من رسول الله ﷺ رحم ماسَّة تعطيه نصف ما أعطاك السوقة! ما هذا شيء أعطه الكيس كله!!

فدفعته إليه ومضى صديقي التاجر إلى الهاشمي فسأله القرض فأخرج الهاشمي إليه الكيس، فلما رأى خاتمه عرفه وانصرف إليَّ فأخبرني الأمر، وجاءني رسول يحيى بن خالد يقول: إنما تأخر رسولي عنك لشغلي بحاجات أمير المؤمنين، فركبت إليه فأخبرته بخبر الكيس، فقال: يا غلام هات تلك الدنانير، فجاءه بعشرة آلاف دينار، فقال: خذ ألفي دينار لك وألفين لصديقك وألفين للهاشمي وأربعة آلاف لزوجتك فإنها أكرمكم»[1].

والواقدي هذا يا إخوة .. كان عطاؤه في السنة ستمائة ألف دينار لم تجب عليه الزكاة يومًا، ولما مات لم يجدوا عنده ثمن كفنه فبعث له الخليفة المأمون بأكفانه!!

(١) تاريخ بغداد ٣/ ١٩، ٢٠.

لله دره من مؤثر للآخرة على الدنيا، علم هو وإخوانه في نسب اليقين أن (المال إذا وصل إلى الكرام عابر سبيل، وإكرام عابر السبيل تجهيزه للرحيل)[1]، فانطلق هو وإخوانه ينشدون:

لا يألف الدرهم المضروب صرتنا ... لكن يمر عليها ثم ينطلق

إنا إذا اجتمعت يومًا دراهمنا ... كانت إلى سبيل المعروف تستبق

وإن أشفقنا عليه بعد قراءة خبره ورقَّت قلوبنا لحاله بعد أن عرفناه، فإن رسول الله ﷺ يطلب إلينا أن نكفَّ وننتهي في قوله:

«لو تعلمون ما ادُّخر لكم ما حزنتم على ما زُوي عنكم»[2].

كيف لا وقد ضرب لنا ﷺ القدوة والمثل بعمله قبل قوله، فكان كثيرًا ما يدخل الغرفة من غرفات زوجاته لا يعرف أحد لماذا دخل ولماذا خرج، حتى باح ﷺ بالسر يومًا فقال: **«إني لألج هذه الغرفة ما ألِجُها إلا خشية أن يكون فيها مال، فأتوفى ولم أنفقه»**[3].

٢- ليته قطفه:

عن ابن عباس رضي الله عنه [ت: ٦٨] في صلاة الكسوف قالوا: يا رسول الله رأيناك تناولت شيئًا في مقامك ثم رأيناك تكعكعت، فقال ﷺ:

(١) المدهش ص ٢٨٦.
(٢) صحيح: رواه أحمد عن العرباض بن سارية كما في ص ج ص رقم: ٥٢٦١.
(٣) حسن: رواه الطبراني في الكبير عن سمرة بن جندب، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب رقم: ٩٢١.

«إني رأيتُ الجنة فتناولت عنقودًا، ولو أصبتَه لأكلتم منه ما بقيت الدنيا»[1].

آه.. يا ليت رسول الله ﷺ قطف هذا العنقود لتشاهده العيون فتزداد بذلك يقينًا، ولكن أنى له ذلك وهو غيب؟! ونحن ممتحنون بالإيمان بهذا الغيب، ولن يكون الغيب شهادة إلا عندما ندخل الجنة وتظهر نتيجة الامتحان.

أيقن الحجاج بن فرافصة [ت: ١١٨] بفاكهة الجنة. رآه أصحابه واقفًا في سوق الفاكهة فقيل له: ما تصنع هنا؟!. قال:

«أنظر إلى هذه المقطوعة الممنوعة»[2]

مشيرًا إلى ما وصف الله – عز وجل- به فاكهة الجنة في كتابه الكريم فقال: ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ [الواقعة: ٣٣].

لا مقطوعة: فلا تنقطع زمانًا بانقطاع فواكه الشتاء في الصيف، وفواكه الصيف في الشتاء.

ولا ممنوعة: فلا تمنع مكانًا ببعد مكان أو بعلو ثمن بل إذا اشتهاها العبد دنت منه ثم دنت حتى تبلغ فاه فيأكلها.

فإن حُرم العبد فاكهة الدنيا لضيق ذات اليد فإن له أن يُصَبِّر نفسه على طريقة سلمة بن دينار [ت: ١٤٠] فيمر على الفاكهة ويقول مُسلِّمًا: «موعدك الجنة»[3].

(١) صحيح: رواه الشيخان عن ابن عباس كما في اللؤلؤ والمرجان رقم: ٥٢٥.
(٢) حلية الأولياء ٣/ ١٠٨
(٣) حلية الأولياء ٢/ ٩٦.

يا إخوتاه:

قايسوا بين الدنيا والآخرة ... قايسوا الفناء بـالخلود.. قارنوا التعب والعناء بالراحة والهناء، ثـم اختـاروا مـا بـدا لكم .. تعلَّموا من يونس بن عبيـد [ت: ١٣٩] وقـد شـكا رجل إليه وجعًا يجده في بطنه فقال له يونس ناصحًا إياه:

«إن هذه دار لا توافقك فالتمس دارًا توافقك»(١).

٣- ضرب المثل:

عن أبي هريرة ﷺ [ت: ٥٨] أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**إنما مثلي ومثل الناس كمثل رجل استوقد نارًا، فلما أضـاءت مـا حولـه جعـل الفـراش وهذه الدواب التي تقع في النار يقعـن فيهـا، فجعـل الرجـل يـزعهن ويغلبنـه فيقتحمن فيها، فأنا آخذ بحجزكم عن النار وأنتم تقتحمون فيها**»(٢).

قال الإمام النووي [ت: ٦٧٦]:

«مقصود الحديث أنه ﷺ شبَّه المخالفين له بالفراش وتساقطهم في نـار الآخرة بتساقط الفراش في نار الدنيا مـع حرصـهم علـى الوقـوع في ذلـك ومنعه إياهم، والجامع بينهما: اتباع الهوى وضعف التمييز وحرص كل من الطائفتين على هلاك نفسه»(٣).

(١) حلية الأولياء ٣/ ٢٢.
(٢) صحيح: رواه البخاري رقم: ٦٤٨٧.
(٣) فتح الباري ٦/ ٥٣٥.

أي أن الغارق في لذاته ومعاصيه وصل جهله إلى درجة جهل الفراشة، بل إن الفراشة حالها أفضل منه في رأي أبي حامد الغزالي [ت: ٥٠٥] الذي قال:

«ولكن جهل الآدمي أشد من جهل الفراش، لأنها باغترارها بظواهر الضوء إذا احترقت انتهى عذابها في الحال، والآدمي يبقى في النار مدة طويلة أو أبدًا»[١].

وهذا الحديث من عجائب تمثيله ﷺ ومن علامات رحمته بأمته وإشفاقه عليها.

يا هذا

يا مسكين ...

يا مقتحم النار

يا فرحًا بلذة عاقبتها جهنم ...

كيف يفلح من يسرُّه ما يضره؟!

كيف يربح من ينفق من أصل رأس ماله ويبعثر من خزانة عمره؟!

(١) فتح الباري ٦/ ٥٣٥.

يا إخي ..

ثوب حياتك منسوج من خيوط أنفاسك وأنت تنفق أنفاسك في العبث .. يا من كلما وعى لهى، يا من كلما صحا غفا: كيف ترجو مولد الهداية في قلبك إذا كانت وعودك مع الله عقيمة وعهودك بإصلاح نفسك عاقرة؟! كيف ترجو صعود صلاتك إلى السماء ومؤشر القلب في سفينة الجسد يشير إلى الأرض؟!

إخي...

من جاور سوق الضجيج لم يسمع مؤذن الهدى، ومن بال الشيطان في أذنيه فلا يشكونّ الصمم عن سماع المواعظ، ومن بهره وميض النار فظنه نورًا، فسوف يعرف الحق عندما تفوح منه رائحة الشواء في جهنم.

٤- الموعد والمكان:

واسمع تفاصيل الخبر ليوقد في قلبك الشرر شوقًا إلى لقاء خير البشر في جنات نهر:

عن أنس ﷺ [ت: ٩٢] قال: سألت رسول الله ﷺ أن يشفع لي يوم القيامة. قال: **أنا فاعل إن شاء الله**. قال: فأين أطلبك؟ قال: **أول ما تطلبني على الصراط**. قلت: فإن لم ألقك؟ قال: **فاطلبني عند الميزان**.

قلت: فإن لم ألقك عند الميزان؟

قال: «فاطلبني عند الحوض فإني لا أخطئ هذه الثلاث مواطن»[1].

إخوتاه.. بلغ اليقين بأنس ﷺ مبلغًا عظيمًا فأصبح عنده يوم القيامة شهادة لا غيبًا، وواقعًا لا خيالاً، لكن بقيت المسألة التي أرقته طويلاً: أين سيقابل الرسول ﷺ وسط هذه الجموع والأمواج المتلاطمة من البشر من لدن آدم عليه السلام إلى قيام الساعة؛ لذا كان همه بعد اليقين بحتمية اللقاء تحديد مكانه حتى لا يتوه وسط الزحام فيفقد أثر سيد الأنام ﷺ.

يا أهل اليقين ... يا أصحاب الشفاعة ... غدًا نلتقي رسول الله ﷺ والمكان حَدَّده أنس رضي الله عنه سلفًا فلا يتأخرن منكم أحد.

٥- رأى النار بعينه:

قال النبي ﷺ: «ليس الخبر كالمعاينة»[2].

وكأنه ينظر إلى الغيب من وراء ستار رقيق فيستنبط حقائق القلوب ويستخرج ودائع الغيوب، طوى الله له الزمان طيًّا فرأى أهل النار يُعذَّبون فيها لا ليزداد يقينًا، بل لينقل لنا الخبر فنزداد نحن يقينًا فقال ﷺ:

«لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيرًا»[3].

(١) صحيح: رواه الترمذي عن أنس كما في صحيح سنن الترمذي رقم: ٢٤٣ والمشكاة: ٥٥٩٥.

(٢) صحيح: رواه الطبراني في الأوسط عن أنس كما في ص ج ص رقم: ٥٣٧٣.

(٣) فتح الباري قم: ٦٤٨٥

والمؤمن الصادق يصدق عيني رسول الله ﷺ أكثر مما يصدق عينيه، وهذا ما أخبر به ابن القيم [ت: ٧٥١] رحمه الله فقال راويًا عن أحد السلف:

«رأيتُ الجنة والنار حقيقة. قيل له: كيف؟! قال: رأيتهما بعيني رسول الله ﷺ، ورؤيته لهما بعينيه آثر عندي من رؤيتي لهما بعيني، فإن بصري قد يطغى ويزيغ بخلاف بصره ﷺ»[1].

واقرؤوا معي خبر رؤيته للنار بعينه: عن عدي بن حاتم ﷺ [ت: ٦٨] قال:

قال النبي ﷺ: «اتقوا النار»، ثم أعرض وأشاح ثلاثًا، حتى ظننا أنه ينظر إليها ثم قال:

«اتقوا النار ولو بشق تمرة، فمن لم يجد فبكلمة طيبة»[2].

قال القاضي عياض [ت: ٥٤٤]:

«قال العلماء: يحتمل أن رآها رؤية عين كشف الله تعالى عنها، وأزال الحجب بينه وبينها كما فرج عن المسجد الأقصى حين وصفه.

وقالوا: ويحتمل أن يكون رؤية علم وعرض وحس بإطلاعه وتعريفه من أمورها تفصيلاً ما لم يعرفه قبل ذلك، ومن عظيم شأنها ما زاده علما بأمرهما وخشية وتحذير ودوام ذكر.

(١) تهذيب مدارج السالكين ص ٧٢٩. عبد المنعم صالح العلي العزي. ط. مؤسسة الرسالة.
(٢) صحيح: رواه عدي بن حاتم كما في اللؤلؤ والمرجان رقم: ٥٩٧.

والتأويل الأول أولى وأشبه بألفاظ الحديث لما فيه من الأمور الدالة على رؤية العين، كتناوله من العنقود وتأخره مخافة أن يصيبه لفح النار»(1).

يشير القاضي عياض بذلك إلى حديث النبي ﷺ الذي حوى تفاصيل أكثر وأكثر:

«وعُرِضت عليَّ النار فجعلت أتأخر رهبة أن تغشاني، ورأيت امرأة حميرية سوداء طويلة تعذب في هرة لها ربطتها فلم تطعمها ولم تسقها، ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض، ورأيت أبا ثمامة عمرو بن مالك يجر قصبه في النار»(2).

هذه النار ليست كنار الدنيا بل سوداء لا يضيء جمرها ولا لهبها، أوقد عليها ألف عام حتى احمرت، وألف عام حتى ابيضت، وألف عام حتى اسودت فهي سوداء مظلمة، ولو أذن لنار الدنيا لتعوذت من نار الآخرة، لأنها جزء من سبعين جزءًا من نار جهنم، ولو أن أهل النار كانوا في نار الدنيا لناموا فيها، هي أشد شوقًا إلى أهلها من الجنة إذا أدنيت لأهلها، وإذا كان لا يستطيع الصبر على حر الشمس فكيف يكون صبره على حر النار؟!

وفي ضوء ما ذكرنا وما سنذكر، فإن لنا أن نفهم لماذا كان رسول الله ﷺ إذا خطب وذكر الساعة احمرت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه كأنه منذر جيش يقول: صبَّحكم ومسَّاكم(3).

---

(1) صحيح: صحيح مسلم بشرح النووي ٣/ ٤٨٠. ط. دار أبي حيان.

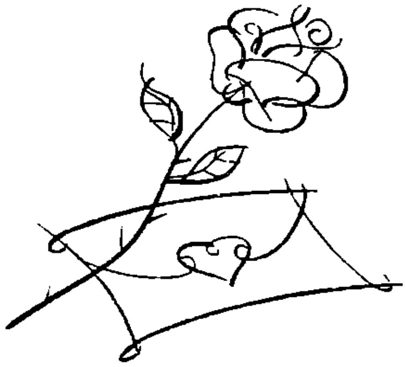
(2) صحيح: رواه مسلم عن جابر رقم: ٢٣٩٨.

(3) رواه مسلم وابن ماجة كما في صحيح الترغيب والترهيب رقم: ٤٨.

٦- وسمع النار بأذنه:

وإن كان رسول الله ﷺ قد رأى نار جهنم بعيني رأسه، فقد سمع أيضًا ما يدور فيها، فعن أبي هريرة ﷺ [ت: ٥٨] قال : كنا مع رسول الله ﷺ إذ سمع وجبة (سقطة) فقال النبي ﷺ: «تدرون ما هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم.

قال: «هذا حجر رُمي به في النار منذ سبعين خريفًا فهو يهوي في النار الآن حين انتهى إلى قعرها»[1]



(١) رواه مسلم وأحمد عن أبي هريرة كما في ص ج ص رقم: ٦٩٩٣.

تلامـذة يقتدون

* واسمعوا إلى ما حدث مع الفقيه القدوة عالم اليمن **طاووس بن كيسان** [ت: ١٠٦] الذي قال عنه عبد الله بن عباس ﷺ [ت: ٦٨]: «**إني لأظن طاووسًا من أهل الجنة**»[1].

لما حج **سليمان بن عبد الملك** [ت: ٩٩] خرج حاجبه يقول: إن أمير المؤمنين قال: ابغوني فقيهًا أسأله عن بعض المناسك، فقالوا: هذا طاووس اليماني فأخذه الحاجب فقال: فأجب أمير المؤمنين. قال: فأعفني، فأبى ثم أدخله عليَّ.

قال طاووس: فلما وقفت بين يديه قلت: إن هذا المجلس يسألني الله عنه، فقلت: يا أمير المؤمنين، إن حجرة كانت على شفير جُبٍّ في جهنم هوت فيها سبعين خريفًا حتى استقرت في قرارها. أتدري لمن أعدها الله؟! قال: لا .. ويلك لمن أعدها؟! قال: «لمن أشركه الله في حكمه فجار»[2].

* لما أيقن رفيق القرآن وجليس السنة **مالك بن دينار** [ت: ١٣٠] بالنار وصدَّق اقتداؤه بالنبي ﷺ تمنى أمنية عجيبة تُسفر عن همة عالية وعزيمة صادقة فقال: «لو وجدت أعوانًا لفرَّقتهم ينادون في سائر الدنيا

(١) نزهة الفضلاء ٢/ ٥٧٧.
(٢) المصدر نفسه ٢/ ٥٧٨.

كلها: يا أيها الناس   النار النار»[١].

* **أبو موسى الأشعري** ﷺ [ت: ٥٢] كان من قبلهما له شأن آخر، حيث ترجم يقينه إلى وصية كان يوصي بها امرأته كلما خرج من منزله قائلاً لها:

«شدي رحلك فليس على جسر جهنم معبر»[٢].

٧- وسمع عذاب القبر:

عن **زيد بن ثابت** ﷺ [ت: ٤٥] قال: بينما النبي ﷺ في حائط لبني النجار على بغلة ونحن معه، إذ حادت به فكادت تلقيه، وإذا أقبر ستة أو خمسة أو أربعة، فقال: من يعرف أصحاب هذه الأقبر؟ فقال رجل: أنا. قال ﷺ: «**فمتى مات هؤلاء؟**». قال: ماتوا في الإشراك، فقال ﷺ:

«**إن هذه الأمة تُبتلى في قبورها، فلولا أن لا تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر الذي أسمع**»[٣]

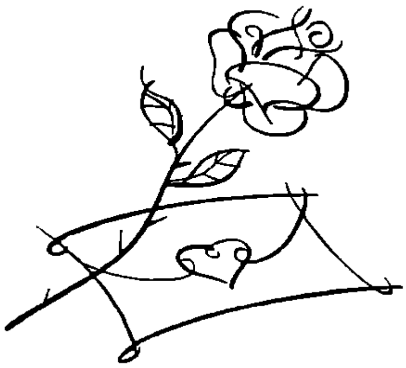
عذاب القبر ... سمعه رسول الله ﷺ بأذنه طوال حياته فكان كلما أشرف على قبر أو مر عليه استعاذ من عذاب القبر؛ ولذا كان الأمر عنده رأي عين، وبعثه الله -عز وجل- إلينا ليخبر الناس بما عندهم غيب وعنده شهادة، ومن رحمته بنا أنه لم يدْعُ بأن نسمع ما سمع، وإلا امتلأت الأرض

(١) الحلية ٣/ ٣٦٩.
(٢) قصر الأمل ص ١٠٨ رقم: ١٥١ أبو بكر بن أبي الدنيا. ط دار ابن حزم.
(٣) صحيح: رواه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها رقم: ٢٨٦٧

بجثث الأموات وأسنت الحياة وتعفنت،، لكن عذاب القبر تسمعه البهائم؛ ولذا حادت به بغلته ﷺ فيسمعه كل الخلائق إلا الإنس والجن ولو سمعاه لصعقا.

ولأنه رأى -وليس من رأى كمن سمع- فقد أمرنا أمرًا جمع فيه غاية حبه وخوفه على أمته فقال:

«استعيذوا بالله من عذاب القبر، إنهم يعذبون في قبورهم عذابًا تسمعه البهائم»[1].



(١) صحيح: رواه أحمد والطبراني عن أم مبشر كما في ص ج ص رقم: ٩٤٢ والصحيحة رقم: ١٤٤٤.

حتى اليهود يؤمنون!!

والحق أن عذاب القبر يؤمن به الناس أجمعون ولو كانوا يهودًا !! كما حدث مع عائشة [ت: ٥٨] حيث أخبرتها اثنتان من عجائز يهود المدينة وقالتا: إن أهل القبور يعذبون في قبورهم فكذبتهما وقالت: ولم أنعم أن أصدقهما، فخرجتا ودخل عليَّ النبي ﷺ فقلت له: يا رسول الله .. إن عجوزين ... وذكرت له، فقال: «**صدقتا إنهم يعذبون عذابًا تسمعه البهائم كلها**»، فما رأيته بعد في صلاة إلا تعوذ من عذاب القبر[1].

لم يَدَعْ صلاة إلا تعوذ فيها من عذاب القبر وهو أول من تنشق عنه الأرض، وأول من يمسك بحلق الجنة، وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وأنت تنسى ذلك كل صلاة!!

ولأنه ﷺ رأى وسمع ما حدث في القبر وجرى كان أشد المناظر فظاعة عنده ... منظر قبر !!

قال رسول الله ﷺ:

«**ما رأيت منظرًا إلا والقبر أفظع منه**»[2].

ولفظاعة منظره ولهول ما يحدث فيه كان **عثمان بن عفان** رضي الله عنه [ت:

(١) صحيح: رواه البخاري ومسلم كما في اللؤلؤ والمرجان رقم: ٣٤٣.
(٢) صحيح: رواه الترمذي وابن ماجة والحاكم عن أبي هريرة رضي الله عنه كما في ص ج ص رقم: ٥٦٢٣.

٣٥] كلما وقف على قبر بكى حتى بلَّ لحيته، فقيل له: تذكر الجنة والنار فلا تبكي وتذكر القبر فتبكي !! قال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«القبر أول منازل الآخرة، فإن نجا منه فما بعده أيسر منه، وإن لم ينجُ منه فما بعده أشد»(١).

وسمعه مولاه هانئ ينشد على قبر:

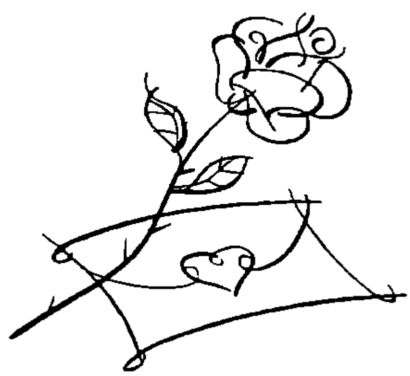
فإن تنجُ منها تنجُ من عظيمة   وإلا فإني لا إخالك ناجيا

إخواني الميت يصيح في قبره ولا يسمعه أحد ويستغيث ولا مغيث:

أنا في القبر وحيدٌ   قد تبرَّا الأهل مني

أسلموني لذنوبي   خِبْتُ إن لم تعفُ عني

ولهذا كان **لأبي هريرة** ﷺ [ت: ٥٨] صيحتان في كل يوم: أول النهار وآخره، ينفخ بهما روح اليقين في القلوب البالية، ويقول: ذهب وجاء النهار وعُرض آل فرعون على النار، فلا يسمعه أحد من الناس إلا استعاذ بالله من النار(٢).



(١) حسن: رواه ابن ماجة عن عثمان بن عفان ﷺ، وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجة رقم: ٣٤٤٢.
(٢) نزهة الفضلاء ١/ ٢٦٧ . ط دار الأندلس الخضراء.

أمك في انتظارك

عن جابر بن عبد الله ﷺ [ت: ٩٤] قال:

لما دُفن سعد بن معاذ [ت:٥] ونحن مع رسول الله ﷺ؛ سبح رسول الله ﷺ، فسبَّح الناس معه طويلا، ثم كبَّر فكبَّر الناس، ثم قالوا: يا رسول الله.. مم سبحت؟!

فقال: **«لقد تضايق على هذا الرجل الصالح قبره حتى فرجه الله عز وجل عنه»**(١).

أخي...

إن كان هذا ما حدث مع سعد بن معاذ الذي اهتز عرش الرحمن لموته .. فماذا سيحدث لك؟!

أخي..

لن ينجو من ضمة القبر أحد .. لن ينجو أحد، ولو نجا أحد لكان سعد بن معاذ ﷺ،

ولن يُفلت الصغار ولا الكبار، فقد دُفِن صبي فقال رسول الله ﷺ:

(١) صحيح: رواه أحمد في باقي مسند المكثرين رقم: ١٤٤٩٨. قال الشيخ شعيب أرناؤوط: حديث صحيح.

«لَوْ أُفْلِتَ أَحَدٌ مِن ضمَّة القبرِ لأُفْلِتَ هذا الصبي»[1]

ولكني أبث الطمأنينة في قلبي وقلبك وأقول لك: شتان بين ضمة وضمة .. شتان بين ضمة المؤمن وضمة العاصي.

قال الإمام حافظ الدين أبو البركات النسفي [ت: ٧١٠]:

«إنما أصلها أنها أمهم ومنها خُلقوا فغابوا عنها الغيبة الطويلة، فلما رُدّوا إليها ضمَّتهم ضمَّة الوالدة غاب عنها ولدها ثم قدم عليها، فمن كان لله مطيعًا ضمَّته برأفة ورفق، ومن كان عاصيًا ضمَّته بعنف سخطًا منها عليه لربها»[2].

٨- ورأى الجنة رأي العين:

إلام وصل منسوب اليقين في قلبك الآن؟ إن لم يكن ما سبق من الأخبار التي تبعث على الخوف قد أثر فيك فجرِّب معي أن تشتاق. قال بشر بن الحارث [ت: ٢٢٧]: «هب أنك لا تخاف .. ويحك .. ألا تشتاق؟!»[3].

واسمع كيف زرع النبي ﷺ الشوق في قلبك بإخبارك كيف دخل الجنة ورأى فيها ما رأى فأطلعك على ما غاب عنك.

---

(١) صحيح: رواه الطبراني عن أبي أيوب كما في صحيح الجامع رقم: ٥٢٣٨.

(٢) حاشية السندي على سنن النسائي ٤/١٠٣ - جلال الدين السيوطي – ط ٢ مكتب المطبوعات الإسلامية – حلب.

(٣) طبقات الصوفية ص ٤٤. أبو عبد الرحمن السلمى. ط. مكتبة الخانجي.

قال رسول الله ﷺ:

* «دخلت الجنة فاستقبلتني جارية شابة فقلت: لمن أنتِ؟ فقالت: لزيد بن حارثة»(١).
* «دخلتُ الجنة البارحة فنظرت فيها فإذا جعفر يطير مع الملائكة وإذا حمزة متكئ على سرير»(٢).
* «دخلت الجنة فسمعت خشفة بين يدي قلت: ما هذه الخشفة؟ فقيل: هذا بلال يمشي أمامك»(٣).
* «دخلتُ الجنة فرأيت لزيد بن عمرو بن نفيل درجتين»(٤).
* «لقد رأيتُ رجلاً يتقلب في الجنة في شجرة قطعها من ظهر الطريق، وكانت تؤذي الناس»(٥).
* «أُريت في الجنة امرأة أبي طلحة»(٦).

كان رسول الله ﷺ يرى الجنة كثيرًا في حياته حتى رآها في أحلك ظروفه وأحواله:

---

(١) صحيح: رواه الضياء كما في ص ج ص رقم: ٣٣٦١.
(٢) صحيح: رواه الطبراني والحاكم عن ابن عباس ﷺ كما في ص ج ص رقم: ٣٣٥٨.
(٣) صحيح: رواه الطبراني وابن عدى عن أبي أمامة ﷺ كما في ص ج ص رقم: ٣٣٦٤.
(٤) حسن: رواه ابن عساكر عن عائشة، وحسنه الألباني في ص ج ص رقم: ٣٣٦٢، وزيد هذا كان يدعو إلى التوحيد في الجاهلية وكان على الحنيفية ملة إبراهيم عليه السلام، ويبعث أمة وحده، وهو والد الصحابي المبشر بالجنة سعيد بن زيد ﷺ.
(٥) صحيح: رواه مسلم عن أبي هريرة ﷺ كما في ص ج ص رقم: ٥١٣٤.
(٦) صحيح: رواه مسلم عن جابر ﷺ كما في صحيح مسلم رقم: ٢٤٥٧.

عند قبض روحه وانتقاله إلى الرفيق الأعلى، ولم يكن ذلك يحدث معه فحسب، بل مع كل نبي عند قبض روحه وانتهاء أجله. قال رسول الله ﷺ:

«إنه لم يُقبض نبي قط حتى يرى مقعده من الجنة، ثم يُخيَّر»(١).

ولأنه رآها قبل ذلك وعاينها كانت المقارنة عنده مرفوضة والنتيجة محسومة:

«اللهم اغفر لي وألحقني بالرفيق الأعلى»(٢).

٩- كل نبوءاته تتحقق:

هذه أقوال ترجمت إلى أحداث، فكان لها أعظم الأثر في غرس اليقين في قلوب أصحابه ﷺ، حتى كان مجرد النظر إليه باعثًا من بواعث اليقين، فاسمعوا كي تغرسوا... كي توقنوا.

* عن **ثابت بن أنس** ﷺ: أن النبي ﷺ لما ورد ماء بدر أومأ بيده إلى الأرض فقال: «**هذا مصرع فلان**»، «**هذا مصرع فلان**» فوالله ما ماط «تنحى وبعد» أحد منهم عن مصرعه(٣).

* ولما بعث رسول الله ﷺ **خالد بن الوليد** ﷺ [ت: ٢١] ليأسر **أكيدر بن عبد الملك** ملك كندة؛ قال له: إنك ستجده يصيد البقر، فوجده كما أخبره رسول الله ﷺ، وكان ذلك في غزوة تبوك سنة تسع من الهجرة.

---

(١) صحيح: رواه الشيخان وأحمد عن عائشة كما في ص ج ص رقم: ٢٤٠٢.

(٢) صحيح: رواه ابن ماجة عن عائشة كما في صحيح ابن ماجة رقم: ١٣١٢

(٣) صحيح: رواه مسلم كما في كتاب الجهاد والسير رقم: ١٧٧٩

* وفي ذات الغزوة (تبوك) قال النبي ﷺ: أما إنها ستهب الليلة ريح شديدة فلا يقومن أحد، ومن كان معه بعير فليعقله، فهبت ريح كما أخبر رسول الله ﷺ.

* ويخبر **أبا ذر الغفاري** [ت: ٣٢] ﷺ أثناء غزوة تبوك بتفاصيل موته قائلاً: تمشي وحدك وتموت وحدك وتبعث وحدك، فيموت وحيدًا كما قال النبي ﷺ في الربذة.

* ولما بشَّر **ثابت بن قيس بن شماس** ﷺ [ت: ١١] خطيب الأنصار وقال: «**يا ثابت ... ألا ترضى أن تعيش حميدًا وتقتل شهيدًا وتدخل الجنة؟!**» قال: بلى.يا رسول الله، فعاش حميدًا وقُتل شهيدًا يوم مسيلمة الكذاب ويدخل الجنة إن شاء الله.

*ولما أَسرَّ ﷺ إلى ابنته فاطمة حديثًا بكت، ثم أسرَّ لها حديثًا فضحكت فسئلت في ذلك قالت: ما كنت لأفشي سر رسول الله ﷺ حتى قُبض النبي ﷺ، فقالت: أسرَّ إليَّ «**أن جبريل كان يعارضني القرآن كل سنة، وأنه عارضني العام مرتين ولا أراه إلا حضر أجلي، وإنك أول أهل بيتي لحاقًا بي**»، فقال: «**أما ترضين أن تكوني سيدة نساء أهل الجنة أو نساء المؤمنين؟**» فضحكتُ لذلك.

قال النووي [ت: ٦٧٦]: «هذه معجزة ظاهرة له ﷺ، بل معجزتان فأخبر ببقائها بعده (عاشت بعده ٦ أشهر)، وبأنها أول أهله لحاقًا به ووقع ذلك»[1].

---

(١) شرح النووي لصحيح مسلم ١٦/٥.

* ويخبر عمار بن ياسر ﷺ [ت: ٣٧]:

«أبشر عمار ... تقتلك الفئة الباغية»(١).

قال الإمام النووي [ت: ٦٧٦]:

«في هذا الحديث معجزات ظاهرة لرسول الله ﷺ منها أن عمارًا ﷺ يموت قتيلاً، وأنه يقتله مسلمون، وأنهم بغاة، وأن الصحابة يقتتلون، وأنهم يكونون فرقتين: باغية وغير ذلك، وكل هذا وقع مثل فلق الصبح صلى الله وسلم على رسوله الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى»(٢).

بل يصف آخر مشهد من مشاهد عمار ﷺ في الدنيا قبل مصرعه فيقول ﷺ: «آخر شربة تشربها من الدنيا شربة لبن»(٣).

وقد وقع ما أخبر به النبي ﷺ وذلك في سنة ٣٧ من الهجرة في معركة صفين، وقد أتى ﷺ بشربة لبن فضحك، فقيل: ما يضحكك؟! فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «آخر زادك من الدنيا ضيح من لبن»، ثم شرب فقاتل حتى قتل وهو يومئذٍ ابن أربع وتسعين سنة.

* وينظر ﷺ إلى الحسن [ت: ٥٨] ثم ينظر إلى الناس ويقول: «ابني

---

(١) صحيح: أخرجه الشيخان كما في السلسلة الصحيحة رقم: ٧١٠.

(٢) شرح النووي ١٣/ ٤٠.

(٣) صحيح: رواه أحمد والحاكم في المستدرك وقال الحاكم: صحيح على شرطهما ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين»[1].

ويتحقق ذلك سنة ٤٠ من الهجرة بعدما آلت الخلافة إثر استشهاد علي ﷺ إلى ابنه الحسن فتنازل وصالح معاوية ﷺ.

وقد أحصى أحد العلماء في رسالته نبوءات النبي ﷺ فوجدها ١٨٨ نبوءة، تحقق منها إلى الآن ١٦٠ نبوءة، وبقيت ٢٨ نبوءة لم تتحقق بعد ونحن في انتظار تحققها[2].

١٠- السيف طريق آخره الجنة:

وذلك مصداق قول رسول الله ﷺ:

«إن أبواب الجنة تحت ظلال السيف»[3].

روى هذا الحديث أبو موسى الأشعري ﷺ [ت: ٥٢] وكان كل معركة يوقظ به الهمم، ويبعث عن طريقه اليقين، فقام رجل رث الهيئة فقال: يا أبا موسى: أنت سمعت رسول الله ﷺ يقول هذا؟! قال: نعم، فرجع الرجل إلى أصحابه فقال: أقرأ عليكم السلام، ثم كسر جفن سيفه – يعني غمده – فألقاه ثم مشى بسيفه إلى العدو، فضرب به حتى قُتل[4].

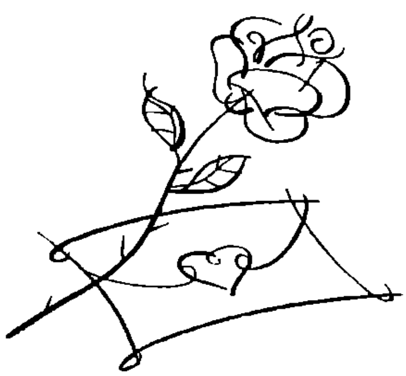
سبحان الله .. كان حديث رسول الله ﷺ يقرأ على أسماع الصحابة

(١) صحيح: رواه البخاري وأبو داود والترمذي كما في إرواء الغليل رقم: ١٥٩٧
(٢) نبوءات الرسول .. ما تحقق منها وما لم يتحقق. محمد ولي الله عبد الرحمن الندوي. ط دار السلام.
(٣) صحيح: رواه أحمد ومسلم والترمذي عن أبي موسى ﷺ كما في ص ج ص رقم: ١٥٣٠.
(٤) صحيح: أخرجه مسلم في الإمارة ٣/ ١٥١١.

فيوقنون به وإن لم يروا رسول الله ﷺ، فيبذلون دماءهم بكلمة، ويقـدمون أرواحهم بكلمة، ويغادرون الحياة بكلمة من رسول الله ﷺ.

أليس عجيبًا أن يُضحّي رجل بحياته بموجب كلمة سمعها مـن رسـول الله ﷺ، ونحن نسمع أحاديث للنبي ﷺ تحثنا على أعمال هي دون الجهـاد بكثير من حيث المشقة والجهد ودرجة البذل والتضحية، ثم لا تجد لها مجيبًـا أو تبصر موقنًا!! تُرى .. فما نسبة اليقين في قلب هذا الأعرابـي إلى الـيقين في قلوبنا؟!

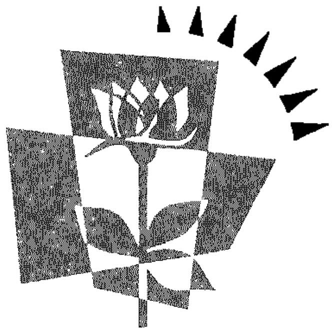
دعـــوه لا تلومـــوه دعـــوه ... فقـد علـم الـذي لم تعلمـوه
رأى علـم الهـدى فسـما إليـه ... وطالـب مطلبًـا لم تطلبـوه
أجـاب دعـاءه لمـا دعـاه ... وقـام بـأمره وأضـعتموه
بنفسـي ذاك مـن فطـن لبيـب ... تـذوق مطعمـا لم تطعمـوه



الشهداء في القمة

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٥٤].

فنهانا سبحانه أن نطلق على الشهيد وصف: ميت، فهو حي في حياته وبعد رحيله؛ لذا قال النبي ﷺ عن طلحة بن عبيد الله وهو حي: «**طلحة ممن قضى نحبه**»، فالحي حي في حياته وبعد مماته، وميت القلب ميت في حياته وبعد موته، وحياة قلب الشهيد ويقينه توحي بها معنى كلمة «شهيد»؛ والتي تعني أنه شهد على الغيب حتى صار عنده شهادة، ولأنه رأى بقلبه ما لا يراه الناس إلا بعد موتهم؛ فأقدم على التضحية بأغلى ما يملك؛ كوفىء باستمرار إطلاق صفة الحياة عليه حتى بعد الموت[1].



(١) طالع كتابنا (رُدَّ إليَّ روحي).

الفصل الثالث

أنواع اليقيـــن

لـن تكـون موقنًـا حقًـا حتـى تحقـق في نفسك هذه المعاني من يقين بالقرآن، ويقين بما جاء في السنة، ويقين بالموت، ويقين بالقدرة الإلهية، ويقين بالقدر رزقًا كان أم أجلاً، ويقين بالجزاء، ويقين بأسماء الله وصفاته، فإلى هذه الصفحات لتعرف أنواع اليقين.

أنواعُ اليقيـــنِ

١- اليقين بصدق القرآن:

وكيف لا نوقن بصدق القرآن والقرآن يقرع أسماعنا بهـذا الاسـتفهام الاسـتنكاري صـباح مسـاء: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النسـاء: ٨٧]، وبقوله: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢].

واسمع قول الله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١]

مع أنه لم يأت بعد، لكن الله سبحانه وتعالى ما دام قد أخبرنا أنه سيأتي فكأنه قد أتى، وهو شبيه بقول الله تعـالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ﴾ [المائدة: ١١٦].

فلم يقل الله ذلك بعد ولم يرد عليه عيسى عليه السلام، إنما يكون ذلـك يـوم القيامة، لكن كلام الله جازم صـارم؛ الماضـي فيـه كالمستقبل، وهـو تمهيـد لإيمان النفس بكل ما ورد في كتاب الله والتصديق به، وإليكم نمـاذج اليقين بما جاء في القرآن:

أ- عشرون يغلبون مائتين:

عن أبي عبد الله مردنيش المغربي أنه أغار يومًا فغـنم غنـائم كـثيرة، واجتمـع عليه من الروم أكثر من ألف فارس، فقال لأصحابه وكانوا ثلاث مائة فـارس: ما ترون؟ فقالوا: نشغلهم بترك الغنيمة. قال: ألم يقل القائـل: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ

عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِ﴾ [الأنفال: ٦٥]، فقال أصحابه: يا رئيس الله قال هذا؟ فقال: الله يقول هذا وتقعدون عن لقائهم!! قال: فثبتوا فهزموا الروم[(١)].

ب- فله عشر أمثالها:

فهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه [ت: ٤٠] هذه الآية وأيقن بها، وعندها فقط رأى العجب!!

وقف سائل على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال للحسن أو الحسين: اذهب إلى أمك فقل لها: تركت عندك ستة دراهم فهات منها درهمًا، فذهب ثم رجع فقال: قالت: إنما تركت ستة دراهم للدقيق، فقال علي: لا يصدق إيمان عبد حتى يكون بما في يد الله أوثق منه بما في يده. قل لها: ابعثي بالستة دراهم، فبعثت بها إليه فدفعها إلى السائل. قال: فما حلَّ حبوته حتى مر به رجل معه جمل يبيعه، فقال علي: بكم الجمل؟ قال: بمائة وأربعين درهمًا، فقال علي: اعقله على أن نؤجِّرك بثمنه شيئًا، فعقله الرجل ومضى، ثم أقبل رجل فقال: لمن هذا البعير؟ فقال علي: لي، فقال: أتبيعه؟ قال: نعم قال: بكم؟ قال: بمائتي درهم. قال: قد ابتعته، قال: فأخذ البعير وأعطاه المائتين، فأعطى الرجل الذي أراد أن يؤخره مائة وأربعين درهمًا، وجاء بستين درهمًا إلى فاطمة رضي الله عنها، فقالت: ما هذا؟! قال: هذا ما وعدنا الله على لسان نبيه ﷺ: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠].

---

(١) نزهة الفضلاء ٤/ ١٥٤٥.

جـ- غُلِبت الروم:

عن نيار بن مكرم الأسلمي قال: «﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ﴾ [الروم: ١- ٤]، فكانت فارس يوم نزلت هذه الآية قاهرين للروم، وكان المسلمون يحبون ظهور الروم عليهم لأنهم وإياهم أهل كتاب، وفي ذلك قول الله تعالى: ﴿وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الروم: ٤، ٥]، وكانت قريش تحب ظهور فارس لأنهم وإياهم ليسوا بأهل كتاب ولا إيمان ببعث، فلما أنزل الله تعالى هذه الآية خرج أبو بكر الصديق ﷺ يصيح في نواحي مكة: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ﴾ [الروم: ١- ٤].

قالت ناس من قريش لأبي بكر: فذلك بيننا وبينكم زعم صاحبك أن الروم ستغلب فارس في بضع سنين؛ أفلا نراهنك على ذلك؟! قال: بلى، وذلك قبل تحريم الرهان، فارتهن أبو بكر والمشركون وتواضعوا الرهان، وقالوا لأبي بكر: كم تجعل البضع؟! ثلاث سنين إلى تسع سنين، فسمِّ بيننا وبينك وسطا تنتهي إليه. قال: فسمُّوا بينهم ست سنين. قال: فمضت الست سنين قبل أن يظهروا، فأخذ المشركون رهن أبي بكر، فلما دخلت السنة السابعة ظهرت الروم على فارس، فعاب المسلمون على أبي بكر تسمية ست سنين؛ لأن الله تعالى قال في بضع سنين. قال: وأسلم عند ذلك ناس كثير»[1].

(١) حسن: حسنه الألباني في صحيح الترمذي ٣/ ٨٨ رقم: ٢٥٥٢.

الثمرة .. هات الثمرة

وثمرة اليقين بالقرآن: الإقبال عليه، والتعرف على معانيه وتفسيره، وتدبر آياته ليُفهم المقصود منها والمراد منا، والاعتبار بسير السابقين التي وردت فيه لاستخلاص الدروس والعبر التي تفيد في الحياة، والاستشفاء به من أمراض القلب، وعدم التماس الهداية في غيره، وتطبيق أحكامه.

٢- اليقين بما أخبر به النبي ﷺ:

أ- يقين الصديق ﷺ:

ارتدَّ ناس ممن كانوا آمنوا بالنبي ﷺ وصدقوه، وسعوا بذلك إلى أبي بكر ﷺ [ت: ١٣] فقالوا: هل لك في صاحبك يزعم أنه أسري به الليلة إلى بيت المقدس؟! فقال: أو قال ذلك؟ قالوا: نعم، قال: إن كان قال ذلك لقد صدق، فقالوا: قد صدقته أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح؟! قال: نعم إني لأصدقه مما هو أبعد من ذلك .. أصدقه في خبر السماء في غدوة أو روحة.

لم يسبقنا أبو بكر ﷺ بصلاة ولا بصيام وإنما سبقنا بشيء وقر في صدره ... هذا الشيء اسمه (اليقين).

من أجل هذا كان الصدِّيق هو الصدِّيق، إن العبد قد ينمو يقينه مع كل موقف يمر به يوافق نبوءة أو خبرًا لرسول الله ﷺ، أو قد يرى

معجزات النبي ﷺ واحدة بعد واحدة فيبني يقينه بها لبنة لبنة، ويكون اكتساب اليقين هنا تراكميًّا، لكن يقين الصديق كان من غير هذا النوع؛ يقين كامل من أول لحظة من إسلامه، وإيمان تام لا يضطرب من اليوم الأول.

ب- فيه شفاء للناس:

عن **أبي سعيد الخدري** رضي الله عنه [ت: ٦٣] أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: أخي يشتكي بطنه فقال ﷺ: «**اسقه عسلاً**»، ثم أتى الثانية فقال: «**اسقه عسلاً**» ثم أتى الثالثة فقال: «**اسقه عسلاً**»، ثم أتاه فقال: فعلت، فقال ﷺ: «**صدق الله وكذب بطن أخيك ... اسقه عسلاً**»، فسقاه فبرأ [١]

انظر - حفظك الله - كيف أن هذا المريض لم ينتفع بالدواء الذي وصفه له رسول الله ﷺ إلا بعد أن أيقن بصدق الله -سبحانه وتعالى- وكذب بطنه، فكأن رسول الله ﷺ وصف له دواءين أولهما: روحي وهو اليقين، وثانيهما: مادي وهو العسل، فمن أغفل أحدهما دام مرضه واستحال شفاؤه.

قال **الإمام النووي** [ت: ٦٧٦]:

«ولا يُنكر عدم انتفاع كثير من المرضى بطب النبوة، فإنه إنما ينتفع به من تلقاه بالقبول، واعتقاد الشفاء به، وكمال التلقي له بالإيمان والإذعان، فهذا القرآن الذي هو شفاء لما في الصدور - إن لم يُتلقَّ هذا التلقي - لم يحصل به شفاء

(١) صحيح: رواه الشيخان عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه كما في اللؤلؤ والمرجان رقم: ١٤٣٢

الصدور من أدوائها، بل لا يزيد المنافقين إلا رجسًا ومرضًا إلى مرضهم»[١].

ج- شهادة رجل برجلين:

عن عمارة بن خزيمة أن عمه حدثه وهو من أصحاب النبي ﷺ: أن النبي ﷺ ابتاع (اشترى) فرسًا من أعرابي واستتبعه ليقبض ثمن فرسه، فأسرع النبي ﷺ وأبطأ الأعرابي، وطفق الرجال يتعرضون للأعرابي فيسومونه بالفرس؛ وهم لا يشعرون أن النبي ﷺ ابتاعه حتى زاد بعضهم في السوم على ما ابتاعه به منه، فنادى الأعرابي النبي ﷺ، فقال: إن كنت مبتاعًا هذا الفرس وإلا بعته، فقام النبي ﷺ حين سمع نداءه فقال: «أليس قد ابتعته منك؟!» قال: لا والله ما بعتكه، فقال النبي ﷺ: «قد ابتعته منك»، فطفق الناس يلوذون بالنبي ﷺ وبالأعرابي، وهما يتراجعان وطفق الأعرابي يقول: هلم شاهدًا يشهد أني قد بعتكه. قال خزيمة بن ثابت: أنا أشهد أنك قد بعته. قال: فأقبل النبي ﷺ على خزيمة، فقال: «بم تشهد؟!» قال: بتصديقك يا رسول الله. قال: فجعل رسول الله ﷺ شهادة خزيمة شهادة رجلين[٢].

وقد كافأه الله على يقينه وتصديقه لرسوله بأن استمر الصحابة في الأخذ بهذه الشهادة حتى بعد انتقال النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى؛ وفي أخطر أمر وهو جمع القرآن الكريم، فقد روى الزهري عن خارجة بن زيد: أن زيد بن ثابت [ت: ٤٥] قال: «لما نسخنا المصاحف فُقدت آية من سورة الأحزاب قد كنت أسمع

(١) الطب النبوي ص ٣١، ٣٢ شرف الدين النووي، ط دار الحديث.
(٢) صحيح: رواه النسائي ٧/ ٣٠١، وصححه الألباني.

النبي ﷺ يقرأ بها، فالتمستها فلم أجدها مع أحد إلا مع **خزيمة بن ثابت الأنصاري**؛ الذي جعل رسول الله ﷺ شهادته شهادة رجلين»[1].

د- لن أموت الآن!!:

عن **فضالة بن أبي فضالة الأنصاري** قال: خرجت مع أبي إلى ينبع عائدًا **لعلي ابن أبي طالب** رضي الله عنه - وكان مريضًا بها حتى ثقل - فقال له أبي: ما يقيمك بهذا المنزل؟ ولو مت لم يلك إلا أعراب جهينة؟! احتمل حتى تأتي المدينة، فإن أصابك أجلك وليك أصحابك وصلوا عليك - وكان رضي الله عنه من أصحاب بدر - فقال علي: «**إني لست ميتًا من وجعي هذا، إن رسول الله ﷺ عهد إليّ أن لا أموت حتى أؤمَّر، ثم تختضب هذه** - يعني لحيته - **من دم هذه** - أي هامته -»[2].

وكذلك كان أخوه في التصديق **عمار بن ياسر** رضي الله عنه؛ وذلك في ثقته بحتمية حدوث ما أخبره به رسوله ويقينه الذي لا يوصف ، فقد روت أم عمار - حاضنة لعمار -: اشتكى عمار فقال: «**لا أموت في مرضي هذا، حدثني حبيبي رسول الله ﷺ أني لا أموت إلا قتيلاً بين فئتين مؤمنتين**»[3].

هـ- اختبر يقينك:

وبعد أن رأيت هذه النماذج بعيني قلبك، وتعرضت لبرد يقينها، وعشت في

(١) صحيح: رواه أحمد في المسند ٥/ ١٥٥. تعليق شيب الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.
(٢) حياة الصحابة ٦٧٦ نقلا عن منتخب الكنز ٥/ ٥٩ وقال: رجالة ثقات.
(٣) حياة الصحابة ٦٧٦.

ظلال إيمانها، فهل لك أن تستمع لهذه البشارة، وتُصغي لهذه النبوءة، لتطمئن على حالة قلبك وتعرف حظه من التصديق واليقين، فعن أبي قبيل قال: كنا عند عبد الله بن عمرو بن العاص [ت: ٦٥] وسئل: أي المدينتين تفتح أولاً القسطنطينية أو رومية؟ فدعا عبد الله بصندوق له حلق قال: فأخرج منه كتابًا. قال: فقال عبد الله: بينما نحن حول رسول الله ﷺ نكتب إذ سئل رسول الله ﷺ: أي المدينتين تفتح أولاً: أقسطنطينية أو رومية؟ فقال رسول الله ﷺ: **«مدينة هرقل تفتح أولا»**. يعني: قسطنطينية(١).

وقد تحقق الفتح الأول على يد محمد الفاتح [ت: ٨٥٧] بعد ثمانمائة سنة من إخبار النبي ﷺ بالفتح، وسيتحقق الفتح الثاني بفتح روما حتمًا ولابد بإذن الله تعالى.

ولهذا الحديث دور لا يُنكر في اقتلاع جذور اليأس من نفوس الدعاة وزرع بذور الأمل بدلاً منها، ليقوموا هم بدورهم المنشود في بث روح التفاؤل والاستبشار في أمة غلبها اليأس واستفرد بها التشاؤم، ليشارك كل فرد منها في صنع هذه البشارة بعلمه وجهده وبذله وتضحيته، وفارق كبير عند الله في الجزاء وعند الناس في الإقبال على الخير والاهتداء؛ بين من يدعو إلى الله واليأس يملأُ قلبه والإحباط يقوده، وبين من يدعو وهو واثق من النتيجة وموقن بالظفر، ولله در القائل:

---

(١) صحيح: رواه أحمد والدارمي وابن أبي شيبة في المصنف، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي وهو كما قالا كما في السلسلة الصحيحة ١/ ٣٣.

يـا أمـتي وأقـول اليـوم في ثقـة ... إنـي اليـقينُ فـلا شـيءٌ يزعـزعني
إن العقيـدة والإقـدام فيصـلها ... ولـيس غـير نـداء الله يسـحرني
أذود عنـه وفيهـا عـلَّ خـاتمتي ... تكـون في ظلـها يومًـا فتقـبلني
فالليـل يعقبـه فجـر ومئذنـة ... والله أكـبر نـبراس علـى الـزمن
الهول في خطوي والنور في دربي ... وأظل أسمع صوت الحق في أذني

بهؤلاء ننتصر!

أورد الطبري ت: ٢٤٨ في كتابه «تاريخ الرسل والملوك» هذا الخبر:

أمر رستم قائد الروم أحد قادته أن يصيب له رجلا من العرب، فخرج هو وصاحب له في سرية من مائة رجل؛ حتى انتهيا إلى القادسية، فأصابا رجلا دون قنطرة القادسية فاختطفاه، فلما انتهيا إلى النجف سرحا به إلى رستم، فقال له رَستم: ما جاء بكم؟ وماذا تطلبون؟ قال: جئنا نطلب موعود الله. قال: وما هو؟ قال: أرضكم وأبناؤكم ودماؤكم إن أبيتم أن تُسلموا. قال رستم: فإن قُتِلتُم قبل ذلك؟ قال: في موعود الله أن من قُتِل منا قبل ذلك أدخله الجنة، وأنجز لمن بقي منا ما قلت لك، فنحن على يقين، فقال رستم: قد وضَعنا إذاً في أيديكم!! قال: ويحك يا رستم! إنَّ أعمالكم وضعتكم فأسلمكم الله بها؛ فلا يغرنك ما ترى حولك، فإنك لست تحاول الإنس؛ وإنما تحاول القضاء والقدر! فاستشاط غضبًا؛ فأمر به فضُربت عنقه[1].

(١) تاريخ الرسل والملوك ٢/ ٢٦٢ بتصرف.

الثمرة .. هات الثمرة

ولليقين بما أخبر به النبي ﷺ ثمرتان:

١ - في ساحة الغيب: ومن أعظم الغيب: أشراط الساعة، وقد ورد عشرة منها في حديث شعبة عن فرات القزاز عن أبي الطفيل عن أبي سريحة حذيفة بن أسيد قال: كان النبي ﷺ في غرفة ونحن أسفل منه، فاطلع إلينا، فقال: «**ما تذكرون؟**» قلنا: الساعة. قال: «**إن الساعة لا تكون حتى تكون عشر آيات: خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف في جزيرة العرب، والدخان، والدجال، ودابة الأرض، ويأجوج ومأجوج، وطلوع الشمس من مغربها، ونار تخرج من قعرة عدن ترحّل الناس**».

قال شعبة: وحدثني عبد العزيز بن رفيع عن أبي الطفيل عن أبي سريحة مثل ذلك لا يذكر النبي ﷺ، قال أحدهما في العاشرة: نزول عيسى ابن مريم ﷺ، وقال الآخر: **وريح تلقي الناس في البحر**[1].

والعلامات الأخرى غير هذه كثيرة منها: خروج ما أخبر به النبي ﷺ من الفتن، وخروج المهدي، والحرب مع اليهود حتى يقول الحجر والشجر: يا مسلم هذا يهودي خلفي فتعال فاقتله، وغير ذلك من الآيات، والواجب علينا أن نوقن بكل ما أخبر به رسوله ﷺ يقينًا لا يتزعزع ولا يتزحزح،

(١) صحيح: رواه مسلم ٤/ ٢٢٢٥.

فما هو إلا كما قال ربه: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلۡوَحۡيِۚ﴾ [الأنبياء: ٤٥]، والوحي من عند الله، وليس من عند نفسه، وما هو غير رسول ومبلِّغ.

ومن الإيمان بالغيب: الإيمان بصحة ما أخبر به النبي ﷺ مما أثبته العلم الحديث أم لم يُثبته بعد؛ ما دام قد صح وروده عن النبي ﷺ قطعيًّا، ومن أمثلة ذلك حديث الذبابة، فالنبي ﷺ قال: «**إذا وقع الذباب في شراب أحدكم فليغمسه ثم لينزعه، فإن في أحد جناحيه داء وفي الآخر شفاء**»[1].

وحتى مع الذين ليس لهم باع من الدراسة والاطلاع العلمي والبحث التجريبي، فعليهم أن يوقنوا بصحة خبر نبيهم ما دام قد قاله.

٢- في ساحة العمل: تناول أحاديث النبي ﷺ بروح جديدة وشوق جارف، واستقبال أحاديث فضائل الأعمال على أنها كنوز لا تقدر بمال، وأرباح أعظم من الخيال، وهذا الشوق إلى الأجر يفوق شوق الظمآن إلى الماء، والأعمى إلى بصيص النور، فتكون كلمات النبوة تعليمات للتنفيذ لا مجرد مواعظ للتنبيه والتذكير.

واسمعوا هذه النماذج لتتذوقوا هذه الثمرة جيدًا وتختبروا يقينكم في ضوئها ولعلكم توقنون:

* عن عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه [ت: ٧٣] قال: «كنا عند النبي ﷺ سبعة أو ثمانية أو تسعة، فقال: ألا تبايعون رسول الله، فبسطنا

(١) صحيح: رواه البخاري وابن ماجة عن أبي هريرة كما في ص ج ص رقم: ٨٣٧.

أيدينا فقال قائل: يا رسول الله!! إنا قد بايعناك فعلام نبايعك؟! فقال: **أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا وتقيموا الصلوات الخمس وتسمعوا وتطيعوا**، وأسر كلمة خفية: «**ولا تسألوا الناس شيئًا**».

قال: «فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوطه فلا يسأل أحدًا يناوله إياه»(١).

* **عن عبد الرحمن بن أبي ليلى أن عبد الله بن رواحة** ﷺ [ت: ٨] أتى النبي ﷺ ذات يوم وهو يخطب، فسمعه وهو يقول: اجلسوا، فجلس مكانه خارجا عن المسجد حتى فرغ النبي ﷺ من خطبته، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال له: «**زادك الله حرصًا على طواعية الله وطواعية رسوله**»(٢).

* عن **أنس** ﷺ [ت: ٩٢] أن رسول الله ﷺ خرج يومًا ونحن معه فرأى قبة مشرفة فقال: «**ما هذه؟!**» قال أصحابه: هذه لفلان رجل من الأنصار، فسكت وحملها في نفسه حتى إذا جاء صاحبها رسول الله ﷺ، وسلم عليه في الناس، فأعرض عنه، صنع ذلك مرارًا حتى عرف الرجل الغضب فيه والإعراض عنه، فشكا ذلك إلى أصحابه، فقال: والله إني لأنكر رسول الله ﷺ. قالوا: خرج فرأى قبتك، فرجع إلى قبته، فهدمها حتى سواها بالأرض، فخرج رسول الله ﷺ ذات يوم، فلم يرها. قال: «**ما فعلت القبة؟!**» قالوا: شكا إلينا

(١) صحيح: مسلم وأبو داود وابن ماجة عن عوف بن مالك ﷺ كما في صحيح أبي داود رقم: ١٤٤٩ وصحيح ابن ماجة رقم: ٢٣١٦.

(٢) كذا في كنز العمال ١٣/ ٤٢٠ وأخرج البيهقي نحوه عن عبد الرحمن بسند صحيح كما في الإصابة ٢/ ٣٠٦.

صاحبها إعراضك عنه، فأخبرناه فهدمها، فقال: «**أما إن كل بناء وبال على صاحبه إلا ما لا ... إلا ما لا**»(١).

✵ كان **محمد بن أسلم الطوسي** [ت: ٢٤٢] الإمام المتفق على إمامته مع رتبته أتبع الناس للسنة في زمانه حتى قال: ما بلغني سنة عن رسول الله ﷺ إلا عملت بها، ولقد حرصت على أن أطوف بالبيت راكبًا، فما مكنت من ذلك، فسئل بعض أهل العلم في زمانه عن السواد الأعظم الذين جاء فيهم الحديث: «**إذا اختلف الناس فعليكم بالسواد الأعظم**»، فقال: **محمد بن أسلم الطوسي** هو السواد الأعظم(٢).

(١) حسن صحيح: رواه أبو داود وابن ماجة كما في صحيح الترغيب والترهيب رقم: ١٨٧٤، وقوله: «إلا ما لا» أي إلا ما لا بد منه مما يستره من الحر والبرد والسباع ونحو ذلك.
(٢) إغاثة اللهفان ١/ ٧٠.

السيف الخشب!!

ومن عجائب الامتثال والتي كادت تكون ضربًا من الخيال لولا نقل ابن إسحاق [ت: ١٥١] وإخوانه من أصحاب السير لهذه القصة العجيبة المذهلة:

«وقاتل **عكاشة بن محصن بن حرثان الأسدي** [ت: ١١] حليف بني عبد شمس يوم بدر بسيفه حتى انقطع في يده، فأتى رسول الله ﷺ فأعطاه جذلاً من حطب، فقال: **قاتل بهذا ياعكاشة!!** فلما أخذه من رسول الله ﷺ هزَّه فعاد سيفًا في يده طويل القامة شديد المتن أبيض الحديدة، فقاتل به حتى فتح الله على المسلمين، وكان ذلك السيف يسمى العون، ثم لم يزل عنده يشهد به المشاهد مع رسول الله ﷺ حتى قتله طليحة الأسدي أيام الردة»[1].

وهذا الصحابي هو عكاشة الذي ذكره رسول الله ﷺ في السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بغير حساب، ولقد أيقن عكاشة بن محصن بقول رسول الله وبادر بامتثال أمره على الفور: «**قاتل بهذا يا عكاشة!!**»، فأخذ الخشبة من رسول الله ليواجه بها جحافل الكفر المجهزة بالسيوف القواطع والرماح النافذة، ومع ذلك لم يتردد لحظة ولم يشك قلبه طرفة عين، وعندها تحولت قطعة الخشب في يده سيفًا أمضى من الحديد!!

(١) البداية والنهاية ٣/ ٢٩٠.

وواقعة كهذه كانت كفيلة بأن تورث اليقين بكل ما أخبر رسول الله ﷺ في قلوب الصحابة، وتدعوهم إلى طاعته في كل أمر؛ ولو كان في ظاهره شاقًا أو مستحيلاً، فكلما شاهد الصحابة هذا السيف يتلألأ في يد عكاشة؛ ذكروا أنه مولود من جذع شجرة!! فخرت قلوبهم ساجدة لله وانطلقوا يتنافسون في تنفيذ الأوامر النبوية في ثقة وطمأنينة لا يعتريهما أدنى ذرة من شك.

٣- اليقين في قدرة الله:

إن تتبع كيف أنقذ الله أنبياءه ورسله وكيف أمدَّهم بعونه وتأييده يزرع في القلب اليقين بقدرة الله وأنه لا يُعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، وأن قوانين المادة وطبيعتها تتعطل أمام إرادة الخالق، وأن هذا الكون العظيم بكل ما فيه خاضع لإرادة الله وحده ومشيئته، وهذه بعض نماذج قصها القرآن:

* فقد أبطل الله خصائص النار من أجل إبراهيم عليه السلام يوم أن ألقاه قومه في النار؛ حتى قيل إن النار يومها لم تنضج طعامًا ولم تحرق متاعًا صيانة لإبراهيم، وكان الله قادرًا على أن ينصر نبيه بطريقة أخرى من إمطار مطر أو حتى إرسال ملك، ولكنه أراد لنا أن نرضع من اليقين رضعات مشبعات حتى نشب كاملي الإيمان، فنصره بهذه المعجزة، وفي ذلك قال تعالى: ﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ۝٦٨ قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٨، ٦٩].

* ومع نبي الله موسى عليه السلام رأينا العجب، فقد غيَّر الله خصائص الماء كما ألغى خصائص النار من قبل، فسيولة الماء تحولت صلابة، وألقى موسى عصاه في البحر فما غاصت، بل شقت طريقًا، وشكل الماء جبلا ضخما بل جبلين بينهما طريق عبر منه موسى والمؤمنون معه، ثم أتبعهم فرعون وجنوده، وعندها يعيد الله للماء خصائصه الأولى سائلاً هادرًا ليغرق فرعون وجنوده. قال تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الشعراء: ٦٣].

* ويستسقي موسى لقومه بعد أن أصابهم العطش وأوشكوا على الهلاك، فيوحي الله إليه أن يضرب الحجر بنفس العصا، ميت يضرب ميتًا ليخرج الله من بينهما ماء هو سر الحياة: ماء زُلالاً سائغًا للشاربين، ولماذا لم يمطرهم الله بدلاً من ذلك بغيث يشربون منه؟! أو يخرج لهم عين ماء عذبة تروي؟! إنها جرعات اليقين تزرع في أقسى القلوب البشرية وهي قلوب بني إسرائيل عساها تلين وهيهات!! قال عز وجل: ﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [البقرة: ٦٠].

* ونموذج آخر كذلك يضرب فيه ميت ميتًا فتكون الحياة، وذلك حين يُقتل رجل من بني إسرائيل ويجهلون قاتله، فيرشدهم الله إلى القاتل بطريقة تحول أقسى القلوب إلى أخشع القلوب، فأوحى إليهم أن اذبحوا

بقرة، وخذوا بعضها الميت واضربوا به جسد الميت فسيحيا!! ويخبركم عن قاتله، ثم يرجع ليموت من جديد، وقد كان!! ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٧٣].

الثمرة .. هات الثمرة

وثمرة اليقين بقدرة الله هي الاعتماد عليه وحده، وصدق التوكل عليه والافتقار له، وعدم الوقوف إلا على بابه، وامتلاء القلب بردًا وسلامًا إذا أحاطت به المحن، وانشراح الصدر عند الشدائد، واستقبال الصعاب بثقة من المدد الإلهي والتأييد الرباني، وعندها يأتي الفرج.

وكلما زاد يقين العبد في قدرة الله كلما تدخلت هذه القدرة معه لتفعل الأعاجيب وتُدهش العقول، وتأملوا قصة **خالد بن الوليد** ﷺ لما شرب السمَّ!!.

فقد روى التاريخ أنه كان مع أحد أعدائه وهو **عمرو بن عبد المسيح بن بقيلة** خادم معه كيس فيه سم، فأخذه **خالد** ونثره في يده وقال: لم تستصحب هذا؟ قال: خشيت أن تكون على غير ما رأيت، فكان أحب إليَّ من مكروه أُدخله على قومي. فقال خالد: لن تموت نفس حتى تأتي على أجلها، وقال: «بسم الله خير الأسماء .. رب الأرض ورب السماء الذي لا يضر مع اسمه داء الرحمن الرحيم»، فابتلع **خالد** السم، فقال **عمرو**: والله يا معشر العرب لتملكن ما أردتم؛ ما دام أحد منكم هكذا.

لم يحدث السم أثره في **خالد**، ولم يوعك أو يمرض أدنى مرض مع أن **عمرو ابن عبد المسيح** كان قد أعد هذا السم للانتحار، فلماذا خاب مفعوله مع **خالد** وما خاب مع أعدائه؟! ولماذا ضاع أثره مع **خالد** دونه من

المسلمين؟! إنها شدة اليقين وقوة الثقة في القدرة الإلهية يصاحبها الاعتقاد الجازم بالتأييد الرباني، وبذا غلبت قوة اليقين ضراوة السم.

٤- اليقين بالموت:

وكيف لا توقن بالموت وهو يختطف كل يوم منك صديقًا أو حبيبًا، أو جارًا أو قريبًا، ألم تسمع: ﴿وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧]، فهو الحال المرتحل، الحال على بيت كل ميت المرتحل إلى بيت جاره، وها هي كتائب الأموات تودِّعك كل يوم وتنتظرك حتى تلحق بها غدا أو بعد غد.

وهاك وصية مُحب لك لا يريد منك جزاءً ولا شكورًا هو **مالك بن دينار** [ت: ١٣٠] الذي أدلى بدلوه في بئر اليقين ليُخرج لنا هذا المثل الجميل؛ يوضح به هذا المعنى:

> **«نحن رهائن الأموات، وهم مُحْتَبَسون حتى تُرد إليهم الرهائن، فيُحشرون جميعًا» ثم غشي عليه** (١)

وكيف لا توقن بالموت وأنت تموت كل يوم!! وروحك تُنزع منك كل ليلة ثم تُردُّ إليك مع طلوع الفجر، وكأن الله يعطيك روحك قطعة قطعة، ويمدك بعمرك يومًا بيوم، وإذا كان الله قد وهب لك روحك اليوم فما الذي يضمن أن يستمر عطاؤه غدًا؟!

---

(١) حلية الأولياء ٣/ ٣٧١.

وهذا هو الذي أخاف أبا محمد حبيب الفارسي وأبكاه، فعن إسماعيل بن زكريا وكان جار أبي محمد حبيب الفارسي قال:

كنت إذا أمسيت سمعت بكاءه، وإذا أصبحت سمعت بكاءه فأتيت أهله، فقلت: ما شأنه يبكي إذا أمسى ويبكي إذا أصبح؟! فقالت لي: «يخاف والله إذا أمسى أن لا يصبح، وإذا أصبح أن لا يمسي»[1].

وليس بالبكاء وحده يغرس في قلوبنا اليقين بالموت بل بإجراءات عملية يؤديها كل يوم، فيوصي امرأته صبيحة كل يوم:

إذا متُّ في اليوم فأرسلي إلى فلان يغسّلني وافعلي كذا، واصنعي كذا، فقيل لامرأته: أرأى رؤيا؟! قالت: هذا يقوله في كل يوم[2].

لتنسكب موعظته كالماء الباردة على نفوس طال رقادها، وأرواح فضحها سباتها.

ومشيدٌ دارًا ليسكن داره ... سكن القبور وداره لم يسكن

آه.. لو أيقن الناس بالموت وما بعد الموت، ولو انكشف عنهم الغطاء فرأوا أحوالهم في قبورهم لنفَوْا عن أنفسهم صفة الجهل .. تلك الصفة التي وصف بها الشاعر المؤمن مَنْ فقد اليقين بالموت فقال:

جهول ليس تنهاه النواهي ... ولا تلقاه إلا وهو ساهي

يسر بيومه لعبًا ولهوًا ... ولا يدري وفي غده الدواهي

(١) قصر الأمل ص ٥٩ فقرة رقم: ٦٣. أبو بكر بن أبي الدنيا. ط دار ابن حزم.
(٢) قصر الأمل ص ٦٠ فقرة رقم: ٦٤

مــررتُ بقصــره فرأيــتُ أمــرًا عجيبًــا فيــه مزدجــر ونــاهي
بدا فوق السرير فقلتُ: من ذا؟ فقــالوا: ذلــك الملــك المبــاهي
رأيـت البـاب أسـود والجـواري يَنُحْن وهـن يكسـرن الملاهـي
تــبين أي دار أنـــت فيهـــا ولا تسـكن إليهـا وادرِ مـا هـي

أخي الحبيب..

اعتبر بمن سبقك ولا يخدعنَّك السراب، وخطط للدار التي لا موت فيها بل الخلود، وازرع في الدار التي ما خلقها الله إلا للبذل المحمود، لتحصد يوم الحصاد ثمر الندى والجود.

أخي..

غادر بيتك قبل أن يغادرك، واسترض ربك قبل أن تقابله، واعمر قبرك بصالح عملك قبل أن تنزل إليه، واعتبر بالقصة المتكررة آلاف المرات ومع ذلك لا ينتفع بها الأكثرون:

لم يمُتَّـعْ بالـذي كـان حـوى من حطام المال إذ حلَّ الأجل
إنمــا الــدنيا كظــل زائــل طلعت شمسٌ عليه فاضمحل

وإذا كان طول البقاء قد طمس ملامح اليقين في قلبك، فتذكر هذه الكلمات جيدًا: «الشيب أذان والموت إقامة ولست على طهارة، العمر صلاة والموت تسليم»[1]

(١) المدهش ص ٢٩٢. ابن الجوزي. ط دار الجيل.

موعد إقلاع الموقنين

لله در أبي مسلم الخولاني [ت: ٦٢] من موقن موغل في درب اليقين عريق النسب فيه ... عُرف عنه عبادته ومداومته على صيام النفل في كبر سنه، فقال له قائل حين كبر ورقَّ: لو قصُرتَ عن بعض ما تصنع، فقال:

أرأيتم لو أرسلتم الخيل في الحلبة، ألستم تقولون لفارسها: دعها وارفق بها حتى إذا رأيتم الغاية لم تُسبقوا منها شيئًا؟ قالوا: بلى. قال: «فإني قد أبصرت الغاية، وإن لكل ساعة غاية، وغاية كل ساعة الموت، فسابق ومسبوق»[1].

إن لم تعتبر بحال أخيك أبي مسلم، فاعتبر يا أخي بحال الطائر الذي أدهشنا ابن الجوزي [ت: ٥٩٧] بذكر حاله فقال:

«هذا الطائر إذا علم أن الأنثى قد حملت أخذ ينقل العيدان لبناء العش قبل الوضع، أفتراك ما علمت قرب رحيلك إلى القبر؟! فهلا بعثت لك فراش تقوى ﴿فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ [الروم: ٤٤]»[2].

(١) صفة الصفوة ٤/ ١٤٢. ابن الجوزي . ط دار الفكر.
(٢) المدهش ص ١٦٠.

وانكشف الغطـــاء

عند الاحتضار ووقت الرحيل ينقلب الغيب شـهادة، وكـل مـا غـاب عن عينيك يظهر الآن بين يديك، وكل ما سمعت عنه حـان اليـوم وقـت مشاهدته، لقد رأى فرعون ما رأى موسى، ولكن متى؟! وهو يغرق وبعـد فوات الأوان، فهل يسرك أن تفاجأ عند موتك بما فـوجئ بـه عنـد موتـه، أم توقن من الآن وقبل انتزاع روحك؟! وإليك هذه النمـاذج الرائعـة لتسـاعدك في بلـوغ هـذه الغايـة بعـد أن رأت مـا رأت، وقصـت علينـا - في فرصـة نـادرة لاستشراف الغيب - ما وعت وأدركت:

✱ سلمان الفارسي:

عن بقيرة امرأة سـلمان رضي الله عنه أنـه لمـا حضـرته الوفـاة - يعـني سـلمان - دعاني وهو في علية (غرفة) له فيها أربعة أبواب، فقال: افتحي الأبواب يـا بقيرة، فإن لي زوارًا لا أدري من أي هذه الأبواب يدخلون عليَّ، ثـم دعـا بمسك له، فقال: أديفيه (بليه بالمـاء واخلطيـه) في تنـور ففعلـتُ، ثـم قـال: انضحيه حول فراشي ثم انزلـي فـامكثي، فسـوف تطلعـين علـى فراشـي، فاطلعت فإذا هو قد أخذت روحه، فكأنما هو نائم على فراش[1].

✱ ابو بكر بن حبيب:

قال لأحد أصحابه عند موته: انظر هل ترى جبيني يعرق؟ قال: نعـم،

(١) حياة الصحابة ٣/ ٤٢٩ - الكاندهلوي - ط دار القلم.

فقال: الحمد لله .. هذه علامة المؤمنين (المؤمن يموت بعرق الجبين)[1] ثم بسط يده عند الموت وقال:

ها قد مددت يدي إليك فردها ... بالفضل لا بشماتة الأعداء[2]

* **أبو علي حسن الغلاس:**

طلب ماءً عند موته فشرب وقال: لقد أعطاني ما يتنافس فيه المتنافسون[3].

* **الحسن البصري:**

أغمي عليه عند موته ثم أفاق فقال: لقد نبهتموني من جنات وعيون ومقام كريم[4].

* **أبو بكر محمد بن الحسن النقاش:**

جعل عند موته يحرِّك شفتيه ثم نادى بأعلى صوته: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ [الصافات: ٦١] .. ردَّدها ثلاثًا[5].

* **جارتي هناء!!**

جارة من جاراتي (هناء) كانت مريضة بمرض السرطان، وماتت منذ

---

(١) صحيح: رواه ابن ماجة عن ابن بريدة ﷺ عن أبيه كما في صحيح ابن ماجة رقم: ١١٨٨.
(٢) الثبات عندالممات ص ٦٢. ابن الجوزي. ط مكتبة القرآن.
(٣) السابق ص ٦١.
(٤) وفيات الأعيان ٢/ ٧٢.
(٥) الثبات عند الممات ص ٦٢.

أشهر، فزرت زوجها لأقوم بواجب العزاء، الذي أخبرني أنها في ساعات مرضها الأخيرة كانت تقول:

اغرب عن وجهي يا شيطان!! اخرج من هنا!! لا لا ، ثم تذهب في إغماءة لتفيق وتردد نفس الكلمات!!

وفي يوم آخر صاحت في من حولها:

- لماذا هذه الأنانية، وقد اتفقت معهم!

- مع من؟

- مع الملائكة .. دعوني .. لا تمسكوني ..

ترى ما لا يرون، وتعلم ما لا يعلمون، فبصرها اليوم حديد قوي نافذ، ترى ما كان عنها محجوبا، فتنطق بها لا يفهمون.

٥- اليقين بالقدر:

قال رسول الله ناصحًا أبي بن كعب ﷺ [ت: ٣٠]:

«ولو أنفقتَ مثل أُحدٍ ذهبًا في سبيل الله ما قبله منك حتى تؤمن بالقدر، فتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، ولو مت على غير هذا ... دخلت النار»[1].

(١) صحيح: رواه أحمد بن زيد بن ثابت وأحمد وابن ماجة عن أبي بن كعب ﷺ كما في ص ج ص رقم: ٥٢٤٤.

ومن أهمية اليقين بالقدر كان وصية المودِّعين من الصحابة لأبنائهم قبل موتهم وساعة رحيلهم، فعن **عطاء بن أبي رباح [ت: ١١٤]** قال: سألت **الوليد بن عبادة بن الصامت [ت: ٧٠]**:

كيف كانت وصية أبيك حين حضره الموت؟!

قال: جعل يقول: يا بني اتق الله، واعلم أنك لن تتقي الله ولن تبلغ العلم حتى تعبد الله وحده، وتؤمن بالقدر خيره وشره، قلت يا أبت!! كيف لي أن أؤمن بالقدر خيره وشره؟!

قال: تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، فإن مت على غير هذا دخلت النار.

سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«إن أول ما خلق الله القلم فقال له: اكتب. قال: ما أكتب؟ قال: اكتب القدر ما كان وما هو كائن إلى الأبد»[١].

ويشتمل اليقين بالقدر على:

أ- اليقين بالرزق:

قال رسول الله ﷺ: **«إن روح القدس نفث في رُوْعي: إن نفسًا لا تموت حتى تستكمل رزقها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب، ولا يحملنكم استبطاء الرزق أن تطلبوه بمعاصي الله، فإن الله لا يُدرك ما عنده إلا بطاعته»**[٢].

---

(١) صحيح: رواه الترمذي عن عبادة بن الصامت ﷺ كما في ص ج ص رقم: ٢٠١٧.
(٢) حسن: رواه ابن حبان والحاكم، وحسنه الألباني في الصحيحة رقم: ٢٨٦٦.

أخي الحبيب...

اعلم أن الله لو قسم لك رزقًا وأردت أن تهرب منه ما استطعت منه فكاكًا. قال تعالى: ﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾[الأحزاب: ١٧].

وقال رسول الله ﷺ: «لو أن ابن آدم هرب من رزقه كما يهرب من الموت، لأدركه رزقه كما يدركه الموت»(١).

أما علمت يا أخي أن الله سبحانه قرن الرزق بالخلق فقال: ﴿خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ﴾[الروم: ٤٠]، فدلَّ أن الرزق من الله لا من الخلق؛ ثم لم يكتف بالدلالة حتى وعد فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ﴾[الذاريات: ٥٨]، ثم لم يكتف بالوعد حتى ضمن فقال: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾[هود: ٦]، ثم لم يكتب بالضمان حتى أقسم فقال: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾[الذاريات: ٢٣].

فمن لم يعتبر بقوله، ولم يكتف بوعده، ولم يطمئن إلى ضمانه، ولم يقنع بقسمه، فانظر كيف يكون مسلمًا، وإلى أي حد تدهور يقينه؟ هذه والله مصيبة المصائب ونحن عنها في غفلة عظيمة.

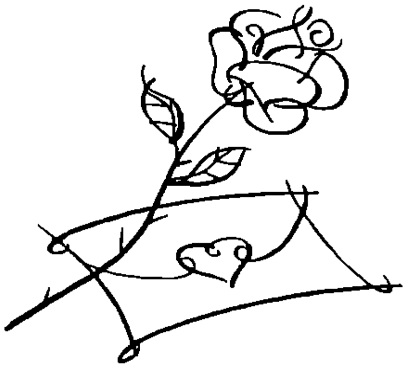
---

(١) حسن: رواه أبو نعيم في الحلية عن جابر ﷺ، وحسنه الألباني في ص ج ص رقم: ٥٢٤٠.

أتطلب رزق الله من عند غيره ... وتصبح من خوف العواقب آمنا
وترضى بصراف وإن كان ... مشركًا ولا ترضى بربك ضامنا
كأنك لم تقنع بما في كتابه ... فأصبحت مسلوب اليقين مداهنا

يا أخي.. إن لم ينفع معك أسلوب الترهيب فها هو زاهد العصر أبو سليمان الداراني يسلك معك طريقًا آخر هو طريق الترغيب ويبشرك – إن أنت أيقنت برزقك – بالأرباح التي عددها لك فقال:

«من وثق بالله في رزقه زاد حسن خلقه، وأعقبه الحلم، وسخت نفسه، وقلت وساوسه في صلاته»[1].



(١) نزهة الفضلاء ٢/ ٨٦٥.

رزقك مضمون .. مضمون

* كان **علي بن أبي طالب** [ت: ٤٠] ﷺ يقول: إن أرجى ما يكون الرزق إذا قالوا: ليس في الدنيا دقيق!!

* وكان **مسروق بن الأجدع** [ت: ٦٢] سيد قراء أهل الكوفة لا يعبأ إذا شكت له امرأته نفاد الطعام لعياله، فيجيبها مبتسمًا: والله ليأتينهم الله برزق عندما يسمعها تقول: ليس عندهم طعام ولا درهم.

* ولما شكا رجل إلى **إبراهيم بن أدهم** [ت: ١٦١] كثرة عياله، صعقه إبراهيم ببرق وعظه قائلاً:

يا أخي .. انظر: كل من في منزلك ليس على الله رزقه فحوِّله إلى منزلي!

* ويتحدى **ميمون بن مهران** [ت: ٢٧٤] كل شاك في رزقه مكذِّب لوعد ربه فيقول:

«يقول أحدهم: اجلس في بيتك، وأغلق عليك بابك، وانظر هل يأتيك رزقك؟ نعم والله، لو كان له مثل يقين مريم وإبراهيم عليهما السلام، وأغلق بابه وأرخى عليه ستره».

* بل يصف **أحمد بن حنبل** [ت: ٢٤١] أحلى أيام حياته فيقول:

«أسرُّ أيامي إليَّ يوم أصبح وليس عندي شيء».

وهو في هذا غير مدع أو مبالغ، وإنما كان هذا اليوم هو أسر أيامه إليه لأنه اعتمد فيه بالكلية على الله، أما في غير هذا اليوم فربما كان اعتماده على رغيفه، واطمئنانه بسبب وجود زاده ومؤونته.

لو كان في صخرة في البحر ... صماء مخبوءة لم يُدْرَ ما فيها
أرزاق نفس براها الله لانفلقت ... حتى تؤدي إليك كل ما فيها
أو كان بين طباق السبع ... لسهل الله في المرقى مراقيها
حتى تنال الذي في اللوح خُطَّ لها ... فإن أتته وإلا سوف يأتيها

الثمرة .. هات الثمرة

ومن علامات أو ثمرات اليقين بالرزق:

✵ البعد عن الحسد:

فإن الموقن أبعد الناس عن حسد غيره وتمني ما في يده والتطلع إلى زهرات الحياة الدنيا، لأنه لا يجتمع في قلب عبد يقين برزق واعتراض على تقسيم هذا الرزق، وما أجمل قول الشاعر المحشو يقينًا:

ألا قل لمن كان لي حاسدًا ... أتدري على من أسأت الأدب
أسأتَ على الله في فعله ... لأنك لم ترض لي ما وهب
فجازاك عنه بأن زادني ... وسدَّ عليك وجوه الطلب

✵ التطهر من أكل الحرام أو شبهة الحرام:

لأن الموقن يؤمن أن رحلة الرزق قد ابتدأت عنده قبل أن يولد، وهو في طريق للوصول إليه عن طريق الحلال؛ إلا أن أصفار القلب من اليقين والظانين بالله ظن السوء يختارون ما يظنونه الأسرع، فيأكلون الحرام، ومن هذه صفته: لو لم يسرق لورث، ولو لم يرتشِ لاغتنى، ولو لم يمد يده إلى الحرام لأمطر عليه الحلال، ولكنكم قوم تستعجلون.

✵ القناعة:

والقناعة هي كما قال الجنيد [ت: ٢٩٧]: «ألا تتجاوز إرادتك ما

هو لك في وقتك»[1].

وحقيقة القناعة أن تترك التطلع إلى المفقود وتستغني بالموجود، وهي حكر على الموقنين الذين يتخذونها درجة في سلم يصعدون به إلى مقام أعلى ومنزلة أسمى؛ وهو مقام الرضا، فإن القناعة أول الرضا.

أكرم ببال فتى أمسى على ... أن الذى قسم الأرزاق يرزقه
فالعرض منه مصون لا يدنّسه ... والوجه منه جديد ليس يخلقه
إن القناعة من يحلل بساحتها ... لم يلق في دهره شيئًا يؤرّقه

فعجبًا لمن يطلب رزقًا هو طالبه، ولا يطلب ما لا يُدرك إلا بطلبه وسعيه – وهو العمل الصالح – ومع هذا لا ينشده، وقد جمع إلى جانب هذا أنه لا يشبع، ولا يحوي قاموس ألفاظه: قد رضيت!!

أراك يزيدك الإثراء حرصًا ... على الدنيا كأنك لا تموت
فهل لك غاية إن صرت يومًا ... إليها قلت: حسبي قد رضيت

وعكس القناعة الطمع، وكما أن القناعة بنت اليقين، فإن الطمع ابن الشك. قال أبو بكر الوراق:

«لو قيل للطمع: من أبوك؟! قال: الشك في المقدور، ولو قيل: ما حرفتك؟! قال: اكتساب الذل، ولو قيل: ما غايتك؟! قال: الحرمان»[2].

(١) حلية الأولياء ١٠/ ٢٦٣.
(٢) حلية الأولياء ١٠/ ٢٣٦.

وفي المقابل فإن كل من أيقن برزقه وعانق قناعته فقد استغنى بعز القناعة عن ذل الطلب، وصار أغنى الناس بشهادة النبي ﷺ: «**وارضَ بما قسم الله لك تكن أغنى الناس**»(١).

فالقناعة: المال الذي لا ينفد، والكنز الذي لا يضيع، وكل من قنع وما طمع فقد طاب عيشه كما وعد الله في كتابه: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧].

قال جمهور المفسرين: هي الرضا والقناعة.

اضرع إلى الله لا تضرع إلى الناس ... واقنع بعز فإن العز في الياس
واستغن عن كل ذي قربى وذي رحم ... إن الغنيَّ من استغنى عن الناس

*** تفريغ الهم للآخرة:**

وجمع القلب على الله، وصيانة النفس من كل صارف عن الهدى، وطارد للخير، لتنفتح للعبد أبواب الجنة الثمانية عبر لطف إلهي بالغ حكى تفاصيله لنا أستاذ علم اليقين **الإمام ابن القيم** [ت: ٧٥١] في إحدى فوائده فقال:

«فرّغ خاطرك للهمِّ بما أُمرت به، ولا تشغله بما ضُمن لك، فإن الرزق والأجل قرينان مضمونان، فما دام الأجل باقيًا؛ كان الرزق آتيًا، وإذا سدَّ عليك بحكمته طريقًا من طرقه؛ فتح لك برحمته طريقًا أنفع لك منه، فتأمل حال الجنين يأتيه غذاؤه – وهو الدم – من طريق واحد وهو السرة، فلما

(١) حسن: رواه أحمد والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه كما في ص ج ص رقم: ١٠٠.

خرج من بطن الأم وانقطعت تلك الطريق؛ فتح له طريقين اثنين وأجرى له فيهما رزقًا أطيب وألذ من الأول، لبنًا خالطًا سائغًا، فإذا تمت مدة الرضاع وانقطعت الطريقان بالفطام فتح طرقًا أربع أكمل منها: طعامان وشرابان، فالطعامان من الحيوان والنبات، والشرابان من المياه والألبان وما يضاف إليهما من المنافع والملاذ، فإن مات انقطعت عنه هذه الطرق الأربعة، لكنه سبحانه فتح له - إن كان سعيدًا - طرقًا، وهي أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها يشاء»[1].

وإن التأمل في تصاريف الزمان، ومتابعة مسلسل الحياة اليومي يشهد لحتمية اليقين بأقدار الله والتسليم لها وتطليق القلق والخوف على الرزق، كما تعلَّم ذلك شاعر دقيق الملاحظة ماضي البصيرة فقال:

ألا رُبَّ باغٍ حاجة لا ينالها … وآخر قد تُقضى له وهو آيس
يحاولها هذا وتُقضى لغيره … وتأتي الذي تُقضى له وهو جالس!!

لذا هاجني وهاجمك ابن عطاء حين انصرفت هممنا إلى الدنيا ورجحت كفتها عن كفة الآخرة فقال:

«اجتهادك فيما ضمن لك، وتقصيرك فيما طَلَب منك دليل على انطماس البصيرة منك».

(١) الفوائد: ٥٨.

ب - اليقين بالأجل:

يروي الشيخ **عائض القرني** أن شابًّا في دمشق حجز ليسافر، وأخبر والدته أن موعد إقلاع الطائرة في الساعة كذا وكذا، وعليها أن توقظه إذا دنا الوقت، ونام هذا الشاب، وسمعت أمه الأحوال الجوية في التلفزيون، وأن الرياح هوجاء، وأن الجو غائم، وأن هناك عواصف رملية، فأشفقت على وحيدها وبخلت بابنها، فما أيقظته أملاً في أن تفوته الرحلة؛ لأن الجو لا يساعد على السفر، وخافت من الوضع الطارئ، فلما تأكدت أن الرحلة قد فاتت، وقد أقلعت الطائرة بركابها، أتت إلى ابنها توقظه فوجدته ميتًا في فراشه[1]، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجمعة: ٨].

وحين ينتهي الأجل يكون الموت بأتفه سبب بل وأطرف الأسباب كما ذكر الشيخ **علي الطنطاوي** [ت: ١٤١٩] في سماعاته ومشاهداته:

«أنه كان بأرض الشام رجلٌ له سيارةُ لوري، فركب معه رجلٌ في ظهر السيارة، وكان في ظهر السيارة نعشٌ مهيَّأ للأموات، وعلى هذا النعش شراعٌ لوقت الحاجة، فأمطرت السماء وسال الماء فقام هذا الراكب فدخل في النعش وتغطى بالشراع، وركب آخر فصعد في ظهر الشاحنة بجانب النعش، ولا يعلم أن

(١) لا تحزن ص ٣٤١. عائض بن عبد الله القرني. ط مكتبة ابن تيمية.

في النعش أحدًا، واستمر نزول الغيث، وهـذا الرجـل الراكـب الثـاني يظـنُّ أنـه وحده في ظهر السيارة، وفجأة يُخرج هذا الرجل يده من النعش، ليرى: هل كفَّ الغيث أم لا؟ ولما أخرج يده أخذ يلوِّح بهـا، فأخـذ هـذا الراكـب الثـاني الهلـع والجزع والخوف، وظن أن هـذا الميـت قـد عـاد حيًّـا، فنسـي نفسـه وسـقط مـن السيارة، فوقع على أمِّ رأسه فمات»[1].

(١) لا تحزن ٣٤١، ٣٤٢.

الثمرة .. هات الثمرة

لن أخبر أنا بالثمرة بل أخبر بها سيد الخلق أجمعين رسول الله ﷺ الذي قال: «ألا لا يمنعن أحدكم رهبةُ الناس أن يقول بحق إذا رآه أو شهده»(١).

ثمرة اليقين بالأجل إذن: الشجاعة وتطليق الجبن والخور، وقد فقهت أعرابية ما جهلناه وهي ما تعلمت حرفًا ولا قرأت سطرًا، وذلك لما شمت بها الحجاج وسخر منها بعد أن قتل ابنها، فأجابته في قوة يقين واستغراب من عدم فهمه لبدهيات الدين وقالت: لو لم تقتله مات!!

ويشهد لهذا قصة صلاح وقيس وعمر!!

يقول الأستاذ الراشد **محمد أحمد الراشد** وهو يثب بنا وثبة من وثبات كتابه المنطلق:

«هذا داعية المنصورة بمصر **صلاح الشربيني** رحمه الله، لم يُمته رصاص الإنكليز لما قاتلهم على قناة السويس، ولكنه مات على سرير مستشفى بعد أيام الحج بمكة، وهذا داعية البصرة **قيس القرطاس** لم يمته عذاب السجن الرهيب، ولكنه مات مخنوقًا بالغاز في حمام بعد خروجه من السجن بأيام،

(١) صحيح: رواه أحمد في المسند، وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح.

وهذا داعية غزة عمر أبو جبارة ﷺ، صاحب الدعوة منذ صباه ودخل السجن فلم يمته تعب البذل اليومي ومات من سقطة بسيطة»[1].

وهو ما دفع الأبطال إلى ركوب الأخطار وخوض المحال غير خائفين من أجل منقوص أو موت مفاجئ، وهي تجربة الأمير أسامة بن منقذ الذي قال مخاطبا كل جبان؛ من إذا ذُكِر السيف لمس رأسه هل ذهب، وإذا ذُكِر الرمح مس جنبه هل ثُقِب، فقال ﷺ بعد أن بلغ التسعين من عمره:

«فلا يظن ظان أن الموت يقدِّمه ركوب الخطر، ولا يؤخِّره شدة الحذر، ففي بقائي أوضح معتبر، فكم لقيت من الأهوال، وتقحَّمت المخاوف والأخطار، ولاقيت الفرسان، وقتلت الأسود، وضربت بالسيوف، وطعنت بالرماح، وجُرِحت بالسهام والجروح، وأنا من الأجل في حصن حصين إلى أن بلغت تمام التسعين، فأعقبت النجاة من تلك الأهوال ما هو أصعب من القتل والقتال، وكان الهلاك في قلب الجيش أسهل من تكاليف العيش، استرجعت مني الأيام بطول الحياة سائر محبوب اللذات، وشاب كدر النكد صفو العيش الرغد»[2]

(١) المنطلق ص ١٨١، ١٨٢. ط دار المنطلق عام ١٤١٥هـ.
(٢) كتاب الاعتبار ص ١٨٢ – الأمير أسامة بن منقذ – ط مؤسسة دار الثقافة والنشر والإعلام ، الرياض.

٦- اليقين بالجزاء:

بين المهاجرين والأنصار

كيف يقعد قلب عن البذل والعطاء بعد ما أيقن بالجزاء؟! ولهذا فإن المهاجرين على ما نزل بهم من بلاء ونهكة الأعراض وبذل الدماء وهجرة الأوطان وقطع وشائج القربي في سبيل الله أدوا ما عليهم تجاه الله ورسوله؛ طيبة بذلك نفوسهم، ثقة منهم بموعود ربهم، ولأنهم السابقون في البذل والنصرة وبالتالي في اليقين؛ فقد كافأ الله فقراءهم بكونهم أول من يدخل الجنة وذلك قبل الخلق أجمعين ليناموا فيها أربعين سنة!!

قال ﷺ: **«أول زمرة تدخل الجنة من أمتي فقراء المهاجرين؛ يأتون يوم القيامة إلى باب الجنة، ويستفتحون فيقول لهم الخزنة: أو قد حوسبتم؟ قالوا: بأي شيء نحاسب، وإنما كانت أسيافنا على عواتقنا في سبيل الله حتى متنا على ذلك؟ فيفتح لهم فيقيلون فيها أربعين عامًا قبل أن يدخلها الناس»**[1].

لكن.. لماذا فقراء المهاجرين بالذات؟! والجواب: لأنهم جمعوا إلى جانب تضحيات الهجرة تبعات الفقر وضغوطات الفاقة، فهم أعظم تضحية وأكثر بذلا، وتأمل في الحديث السابق قوة حجتهم يوم القيامة في مواجهة خزنة الجنة، وفخرهم المستحب، وإعجابهم هناك بما قدموه هنا، مما تلمحه في بشارة النبي ﷺ لهم وكأنه ينقل وقائع الأحداث مباشرة هناك

(١) صحيح: رواه الحاكم والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عمرو كما في صحيح الجامع رقم: ٩٦.

لكن.. لماذا فقراء المهاجرين بالذات؟! والجواب: لأنهم جمعوا إلى جانب تضحيات الهجرة تبعات الفقر وضغوطات الفاقة، فهم أعظم تضحية وأكثر بذلا، وتأمل في الحديث السابق قوة حجتهم يوم القيامة في مواجهة خزنة الجنة، وفخرهم المستحب، وإعجابهم هناك بما قدموه هنا، مما تلمحه في بشارة النبي ﷺ لهم وكأنه ينقل وقائع الأحداث مباشرة هناك من على أبواب الجنة!!

لكن .. هل يترك الأنصار إخوانهم المهاجرين يسبقونهم في مضمار اليقين؟!

كلا والله، واسمعوا حين انطلق رسول الله ﷺ مع عمه العباس إلى السبعين من الأنصار عند العقبة تحت الشجرة، فقال قائلهم: سل يا محمد لربك ما شئت، ثم سل لنفسك بعد ذلك ما شئت، ثم أخبرنا ما لنا من الثواب على الله وعليكم إذا فعلنا ذلك. قال: «**أسألكم لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا، وأسألكم لنفسي وأصحابي أن تؤوونا وتنصرونا وتمنعونا مما تمنعون منه أنفسكم**». قالوا: فما لنا إذا فعلنا ذلك؟! قال: «**لكم الجنة**»(1).

> **وإن كنت تريد التأكد من قدر السلعة لأنك لم تعاينها قبل الشراء، فاعلم أن (قدر السلعة يُعرف بقدر مشتريها، والثمن المبذول فيها، والمنادي عليها، فإذا كان المشتري عظيما، والثمن خطيرا، والمنادي جليلاً، كانت السلعة نفيسة)** (2).

إنها الجنة واليقين بالجنة والشوق إلى الجنة، وهو الذي ألهب قلوب العاشقين ليقدموا ثمن المحبة ورسم الدخول ولو كان الروح، فهذا عمار بن ياسر رضي الله عنه [ت: 37] يوم اليمامة وهو واقف على صخرة؛ قد أشرف يصيح: «يا معشر

(1) البداية والنهاية 3/ 164 بتصرف.
(2) الفوائد ص 75.

يصيح: «يا معشر المسلمين، أمن الجنة تفرون؟! أنا عمار بن ياسر، أمن الجنة تفرون؟! أنا عمار بن ياسر؛ هلم إليّ»، وكأن الموت مفتاح دخول الجنة أو أقصر الطرق إليها أو أسهل طريق، واسمعه مرة أخرى يهتف: «الجنة تحت ظلال السيوف، والموت في أطراف الأسنة، وقد فتحت أبواب الجنة، وتزينت الحور العين، اليوم ألقى الأحبة محمدًا وصحبه»، ثم حمل حتى قُتل[1].

وسير الصحابة تمتلئ بهذه اللوحات الإيمانية الرفيعة التي يورث النظر إليها اليقين في قلب المتأمل وذلك كلما أطال النظر وأعاده.

فأنس بن النضر ﷺ [ت: ٣] بلغ من يقينه بالجنة واقترابه منها بروحه أن ملكت عليه فكره، حتى شمَّ رائحتها يوم أحد فلم يصبر عنها فقاتل حتى قُتل.

وسعد بن خيثمة ﷺ [ت: ٢] البار بأبيه يتوقف بره بأبيه عندما يتعلق الأمر بالجنة، فعندما يطلب منه أبوه أن يقعد عن القتال قائلاً: لا بد لأحدنا أن يقيم؛ يقول: لو كانت غير الجنة لآثرتك بها، إني لأرجو الشهادة في وجهي هذا.

وحرام بن ملحان ﷺ [ت: ٣] يصيح فور أن يُقتل: فزت ورب الكعبة !! وكأنه رأى الجنة على طرف السيف الذي قُتل به!!

وعمرو بن الجموح ﷺ [ت: ٣] يصرُّ على القتال حتى بعد أن عذره

(١) الخبران في كتاب حياة الصحابة ٢٩٢، ٢٩٣ بتصرف. ط دار ابن حزم وبيت الأفكار الدولية.

الله بعرجته طلبًا للنزهة في أرجاء الجنة قائلاً: أحب أن أطأ بعرجتي الجنة.

وأبو الدرداء ﷺ [ت: ٣٢] يشتكي فيذكره مرضه بالرحيل، والرحيل يدفع النفس إلى أن تفكر إلى أين، وحين يعوده أصحابه في مرضه، ويظنونه مريضًا كأي مريض؛ يحاولون التهوين عليه والوقوف إلى جواره فيسألونه: ما تشتهي؟! فيقول: أشتهي الجنة!!

وهل دفعهم لهذا غير اليقين والشوق الذي قاد إليه اليقين؟! واسمعوا حال عاشق من أمثال ابن الجوزي [ت: ٥٩٧] حين باح بحبه، وأفهمنا بعض أسرار حماسة صحابة رسول الله ﷺ وشدة اندفاعهم نحو الجنة:

«والله إني لأتخيل دخول الجنة ودوام الإقامة فيها من غير مرض ولا بصاق ولا نوم ولا آفة تطرأ، بل صحة دائمة وأغراض متصلة لا يعترضها منغص، في نعيم متجدد في كل لحظة، إلى زيادة لا تتناهى، فأطيش ويكاد الطبع يضيق عن تصديق ذلك، لولا أن الشرع قد ضمنه، ومعلوم أن تلك المنازل إنما تكون على قدر الاجتهاد ها هنا، فواعجبًا من مُضيِّع لحظة فيها، فتسبيحه يغرس له في الجنة نخلة أكلها دائم وظلها، فيا أيها الخائف من فوت ذلك شجِّع قلبك بالرجاء، ويا أيها المنزعج لذكر الموت: تلمح ما بعد مرارة الشربة من العافية، فإنه من ساعة خروج الروح، لا بل قبل خروجها تنكشف المنازل لأصحابها»(١)

وعلى حسب درجة اليقين تكون سرعة السير والانطلاق نحو الجنة، فمن

(١) صيد الخاطر ٣٣١.

ماشٍ، ومن مهرول، ومن راكض. هكذا رآهم الزاهد الواعظ أبو زكريا يحيى بن معاذ [ت: ٢٨٥] حين لحهم من بعيد فقال: «إنما ينبسطون إليه على قدر منازلهم لديه»[1].

فلكل درجة اجتهاد منزلة في الجنة، وتتفاوت الدرجات بتفاوت الهمم والعزائم التي ولّدها اليقين.

(١) حلية الأولياء ١٠/ ٥٣.

اعتذار الظلمة

ومع اليقين بحسن ثواب المتقين وهو الجنة، يقف على الضفة الأخرى من نهر اليقين بالجزاء: اليقين بسوء عاقبة الظالمين وهول جزاء المسيئين، لو علم الظالم ما أعده الله له من الجزاء لقبَّل يد المظلوم يرجوه أن يعفو عنه ويقبل عذره، قبل أن يأتي يوم ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ [غافر: ٥٢].

واسمعوا معي إلى سعيد النورسي [ت: ١٣٧٩] يخاطب ظالميه من عَلٍ ويتحدث إليهم من موضع المنتصر، وهل انتصار مثل الثبات على الحق واليقين بموعود الله؟ يخاطبهم رحمه الله خطابًا يبث الرعب في قلوبهم ليقشع غشاوة غطت أبصارهم، فيقول لهم:

«إنكم لن تعيشوا بعد قتلي فإن يدًا قاهرة ستأخذكم من دنياكم التي هي جنتكم وأنتم مغرمون بها، وتطردكم عنها وتقذف بكم فورًا إلى ظلمات أبدية، وسيُقتل بعدي رؤساؤكم الذين تذمروا أو طغوا، ويُرسلون إليَّ وسأمسك بخناقهم أمام الحضرة الإلهية، وسآخذ حقي منهم بإلقاء العدالة الإلهية إياهم في أسفل سافلين أيها الشقاة الذين باعوا دينهم وآخرتهم بحطام الدنيا.

إن كنتم تريدون أن تعيشوا حقًّا فلا تتعرضوا إليَّ ولا تمسوني بسوء، وإن تعرضتم فاعلموا أن ثأري سيؤخذ منكم أضعافًا مضاعفة.. اعلموا

هذا جيدًا ولترتعد فرائصكم، وإني آمل من رحمة الله تعالى أن موتي سيخدم الدين أكثر من حياتي، وأن وفاتي ستنفلق على رؤوسكم انفلاق القنبلة وستشتت رؤوسكم وتبعثرها، فإن كانت لكم جرأة فتعرضوا إليَّ، فلئن كان ما تفعلونه بي لتعلمن أن لكم ما تنتظرونه من عقاب، أما أنا.. فسأتلو بكل ما أملك من قوة هذه الآية الكريمة إزاء جميع تهديداتكم:

﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣][1].

وإن كان النورسي قد بثَّ الرعب في قلوب الظالمين بقوله، فإن نعيم بن حماد [ت: ٢٢٨] يؤثر الفعال على الكلام، فيفعل فعلاً عجيبًا غاية في العجب يُسفر عن يقين عجيب.

كان رحمه الله قد أخذ في أيام المحنة سنة ثلاث أو أربع وعشرين ومائتين، وألقوه في السجن بسامراء فلم يزل محبوسًا بها، حتى مات في السجن سنة ثمان وعشرين ومائتين، فجُرَّ بقيوده وألقي في حفرة، ولم يُكفَّن ولم يُصل عليه رحمه الله، وكان رحمه الله أوصى أن يُدفن في قيوده، قال: «إني مُخاصم!!»[2].

(١) المكتوبات ص ٥٥٧. ترجمة إحسان قاسم الصالحي. دار سوزلار للنشر. القاهرة.
(٢) مناقب أحمد بن حنبل ص٤٨٣- ابن الجوزي. ط دار الآفاق الجديدة.

الظالم المسكين

مساكين أنتم معاشر الظالمين، وتستحقون الشفقة ممن أيقن بجزاء المعتدين وصدق بعاقبة المتجبرين وسوء منقلب الطغاة من أمثال عابد الكوفة الإمام التابعي القدوة **إبراهيم بن يزيد النخعي** [ت: ٩٦] الذي قال:

«إن الرجل يظلمني فأرحمه»[1].

يُردد ما سبق وقاله الزاهد الورع **محمود الوراق** [ت: ٢٢٥] شعرا:

إني وهبتُ لظالمي ظلمي ... وغفرتُ له ذلك على علمي
ورأيته أسدى إليَّ يدًا ... فأبان منه بجهله حلمي
رجعت إساءته عليَّ له ... حُسنًا فعاد مُضاعَف الجرم
وغدوتُ ذا أجر ومحمدة ... وغدا بكسب الذَّمّ والإثم
فكأنما الإحسان كان له ... وأنا المسيء إليه في الحكم
ما زال يظلمني وأرحمه ... حتى بكيتُ له من الظلم[2]

فينظر المؤمن للظلم نظرة مختلفة ويصير في نظره كما كان في نظر أورع الناس في زمانه **الفضيل بن عياض** [ت: ١٨٧] الذي رأى في الظلم هدية يُبهر الله بها عبده عندما يلقاه في الجنة، فقال رحمه الله:

---

(١) نزهة الفضلاء ٢/ ٥٨٢.
(٢) العقد الفريد ٢/ ٢٨٥.

«إذا أراد الله أن يُتحف العبد سلَّطَ عليه من يظلمه»[1].

وإليكم أيها المظلومون سلوى يبعثها إليكم عبر مئات السنين أبو عثمان المغربي [ت: ٣٧٣] لتضمد الجراح وتبعث الأمل:

«وإنما اختبرك في قربه بعدوه، لينظر كيف صبرك على عدوه، فإن صبرت على بلوى عدوه جللك بعلمه، وحباك بوصله، وأسكنك في جواره، ونعَّمك بمشاهدته، ولذَّذك بذكره، وأوصلك بمعرفته، وجعلك إمامًا يُقتدى به، ونجاة لعباده، ورحمة لهم في أرضه، وجعل محبتك في قلوبهم، وجعل أنسهم في رؤيتك، وجعل لك حلاوة في قلوبهم»[2].

لله درهم .. يقتدون في ذلك بأبي هريرة ﷺ [ت: ٥٨] غراس التربية النبوية الفذة التي بثت اليقين في قلوب الصحابة ليجري في حياتهم مجرى النفس. كان له أمة زنجية فرفع عليها السوط يومًا، فقال:

> «لولا القصاص لأغشيتك به، ولكن سأبيعك ممن يُوفيني ثمنك .. اذهبي فأنت لله عز وجل»[3].

ما هؤلاء القوم؟! أبدان في الدنيا وقلوب في الآخرة!!

(١) الحلية ٨/ ١٠٤.
(٢) طبقات الصوفية ص ٤٨١.
(٣) الزهد لابن حنبل ص ٢٢١.

غريبة !!

هي حال من اجتمع له التصديق بالجنة والنار وتخلف عنه العمل، وقد سبق أن استغرب هذا الأمر الإمام ابن القيم [ت: ٧٥١] وسأل السؤال نفسه، وبحث عن الأسباب، ثم أجاب على نفسه قائلاً:

«فإن قلت كيف يجتمع التصديق الجازم الذي لا شك فيه بالمعاد والجنة والنار ويتخلف العمل؟! وهل في الطباع البشرية أن يعلم العبد أنه مطلوب غدا إلى بين يدي بعض الملوك ليعاقبه أشد عقوبة أو يكرمه أتم كرامة؛ ويبيت ساهيًا غافلاً لا يتذكر موقفه بين يدي الملك، ولا يستعد له، ولا يأخذ له أهبة!!

قيل: هذا لعمر الله سؤال صحيح وارد على أكثر هذا الخلق، واجتماع هذين الأمرين من أعجب الأشياء، وهذا التخلف له عدة أسباب أحدها: ضعف العلم ونقصان اليقين.

ومن ظن أن العلم لا يتفاوت، فقوله من أفسد الأقوال وأبطلها، فإذا اجتمع إلى ضعف العلم عدم استحضاره أو غيبته عن القلب كثيرًا من أوقاته أو أكثرها؛ لاشتغاله بما يضاده، وانضم إلى ذلك تقاضي الطبع، وغلبات الهوى، واستيلاء الشهوة، وتسويل النفس، وغرور الشيطان، واستبطاء الوعد، وطول الأمل، ورقدة الغفلة، وحب العاجلة، ورخص التأويل، وإلف العوائد؛ فهناك لا يمسك الإيمان في القلب إلا الذي يمسك

السماوات والأرض أن تزولا»[1].

القول قول موقنين والفعل فعل ظانين، هكذا أصبح حال الأكثرين؛ كما قال عالم المدينة أبو حازم سلمة بن دينار [ت: ١٤٠] حين وعظ سليمان بن عبد الملك [ت: ٩٩] قائلاً له:

«ما رأيت يقينا لا شك فيه أشبه بشك لا يقين فيه من شيء نحن فيه»[2]

(١) الجواب الكافي ٢٣.
(٢) حلية الأولياء ٣/ ٢٣٢.

الثمرة .. هات الثمرة

قطف لنا هذه الثمرة أبو حامد الغزالي [ت: ٥٠٥] ثم قدمها لنا على طبق من ذهب حين قال:

«وهو اليقين بالثواب والعقاب حتى يرى نسبة الطاعات إلى الثواب كنسبة الخبز إلى الشبع، ونسبة المعاصي إلى العقاب كنسبة السموم والأفاعي إلى الهلاك، فكما يحرص على التحصيل للخبز طلبًا للشبع، فيحفظ قليله وكثيره، فكذلك يحرص على الطاعات كلها قليلها وكثيرها، وكما يجتنب قليل السموم وكثيرها، فكذلك يجتنب المعاصي قليلها وكثيرها وصغيرها وكبيرها، فاليقين بالمعنى الأول قد يوجد لعموم المؤمنين، أما بالمعنى الثاني فيختص به المقربون، وثمرة هذا اليقين صدق المراقبة في الحركات والسكنات والخطرات، والمبالغة في التقوى، والتحرز عن كل السيئات، وكلما كان اليقين أغلب كان الاحتراز أشد والتشمير أبلغ»[1].

٧- اليقين بأسماء الله وصفاته:

عن أبي هريرة ﷺ [ت: ٥٨] أن رسول الله ﷺ قال: **«إن لله تسعة وتسعين اسمًا، مائة إلا واحدًا من أحصاها دخل الجنة»**[2]

(١) إحياء علوم ١/ ٧٤، ٧٥.

(٢) صحيح: رواه البخاري ومسلم كما في المشكاة رقم: ٢٢٨٨.

وإن كنا لم نر الله بذاته، فقد تجلى سبحانه وتعالى لنا في أسمائه وصفاته، لكن تُرى ما معنى و(أحصاها)؟! هل هو حفظ اللسان فحسب؟! أم هو الغناء بها كما هو حاصل الآن في الحفلات وأماكن الاختلاط حيث ضياع الدين؟!

يقوم بالرد على هذا السؤال الإمام الأصيلي فيقول:

«الإحصاء للأسماء العمل بها لا عدها وحفظها؛ لأن ذلك قد يقع للكافر والمنافق كما في حديث الخوارج يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم»[(1)].

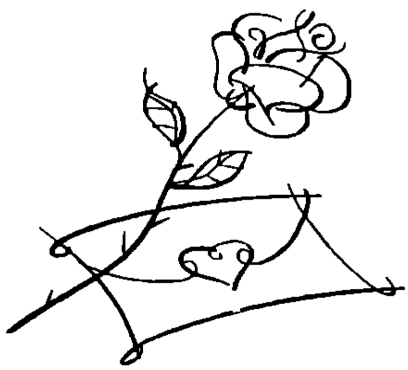
ويزيدك ابن بطال [ت: ٤٤٩] إيضاحًا وإبانة فيقسم الإحصاء إلى قسمين: قولي وفعلي، فيقول رحمه الله:

«الإحصاء يقع بالقول ويقع بالعمل، فالذي بالعمل أن لله أسماء يختص بها كالأحد والمتعال والقدير ونحوها، فيجب الإقرار بها والخضوع عندها، وله أسماء يستحب الاقتداء بها في معانيها: كالرحيم والكريم والعفو ونحوها فيستحب للعبد أن يتحلى بمعانيها ليؤدي حق العمل بها، فبهذا يحصل الإحصاء العملي، وأما الإحصاء القولي فيحصل بجمعها وحفظها والسؤال بها ولو شارك المؤمن غيره في العد والحفظ، فإن المؤمن يمتاز عنه بالإيمان والعمل بها»[(2)].

---

(١) فتح الباري رقم: ٣٧٨/١٣.
(٢) السابق ٣٧٨/١٣.

فأحصاها إذن أي سلك طريق العمل بها، فما كان يختص بالله تعالى من صفات العظمة والألوهية، وجب على العبد الإقرار بها، والخضوع لها، وعدم التشبه بصفة منها، وما كان فيه معنى الوعد: كالرحمن والرحيم والودود واللطيف وقفنا منه عند الرغبة والطمع، وما كان فيه معنىَ الوعيد وقفنا منه عند الخشية والرهبة، وهكذا يكون للموقن مع كل اسم من أسماء الله واجب عملي.



الثمرة .. هات الثمرة

لكل شيء ثمرة، وثمرة اليقين بأسماء الله وصفاته هي معرفة الله تبارك وتعالى، وأخبروني بالله ..

> كيف نعبد ربًّا لا نعلم عنه شيئًا؟!
>
> وكيف نحبه ونحن لا نعلم صفات بره وعفوه ووده ورحمته؟!
>
> وكيف نخافه ونحن نجهل صفات انتقامه وشدته وجبروته وقوته؟! وكيف نهابه ونحن لا نعلم عن صفات عظمته وقهره وجلاله وقيوميته؟! وكيف نرجوه وقلوبنا مغيبة عن كونه الرزاق الوهاب المقيت؟!

إننا كثيرًا ما نُتعب أنفسنا في إقناع الناس عقليًّا بأحكام الدين الشرعية لندفعهم إلى تنفيذها، وكأن الهداية لا تتم دون برهان فلسفي، أو استدلال كلامي، أو إقناع عقلي، أو مطالعة فكرية، غافلين عن المفتاح الذي يفتح قلوبهم للاستجابة الفورية، وهذا المفتاح هو معرفة الله حق المعرفة حتى نعبده حق العبادة، ولا يتم هذا إلا عبر اليقين بأسمائه وصفاته.

الفصل الرابع

توائم اليقين

لا يولد اليقين وحده في القلب إلا أن يولد معه صبر وتوكل ورضا وخوف، فإذا بدر من موقن خلاف هذه المعاني دل هذا على أن يقينه وُلد ناقصًا، أو أن ما توهمه يقينًا لم يكن سوى سراب خادع أو وهم واقع أو شبهة يقين.

تَوَائِم اليقيــن

١- الصبر:

ويشتمل على أنواع ثلاثة يرتبط كل منها باليقين ارتباطًا وثيقًا، وأول هذه الأنواع:

أ- الصبر على الطاعة:

ومما يعين على أداء الطاعات ويُصبّر المرء على مشاقها: رجاء ثوابها والطمع بفضلها والتماس أجرها، وكلما كان يقين المرء أكمل كانت مواظبته على الطاعات أفضل، فكل انصراف عن فريضة بعد مواظبة، وانقطاع عن نافلة بعد مداومة إنما يُعزى إلى ضعف اليقين.

ولو أدرك كل ظان وشاك وضعيف الإيمان ما أيقن به محمد بن النضر [ت: ٢٩١] من قبل لتبدلت أحواله من الكسل عن الطاعة إلى النشاط، ومن الزهد في الثواب إلى الثبات عليه حتى الممات. قال رحمه الله بما قال -:

«ما من عامل يعمل في الدنيا إلا وله من يعمل في الدرجات في الآخرة، فإذا أمسك أمسكوا، فيُقال لهم: ما لكم لا تعلمون؟! فيقولون: صاحبنا لاه»[١].

وهو أعلى أنواع الصبر. قال ابن قيم الجوزية [ت: ٧٥١]:

(١) شعب الإيمان ١/ ٥١٣.

«الصبر على أداء الطاعات أكمل من الصبر على اجتناب المحرمات وأفضل، فإن مصلحة فعل الطاعة أحب إلى الشارع من مصلحة ترك المعصية، ومفسدة عدم الطاعة أبغض إليه وأكره من مفسدة وجود المعصية»[1].

والصبر على الطاعة مرتبط ارتباطًا وثيقًا باليقين؛ ولذا جاء في وصيته لابنه:

«يا بني .. لا يُستطاع العمل إلا باليقين، ولا يعمل المرء إلا بقدر يقينه، ولا يفتر عامل حتى ينقص يقينه»[2].

قال الإمام **الأوزاعي** [ت: ١٥٧]:

«خرجت حاجا فدخلت مدينة النبي ﷺ بليل، فأتيت مسجد النبي ﷺ، فإذا بشاب بين القبر والمنبر يتهجد، فلما طلع الفجر استلقى على ظهره، ثم قال: عند الصباح يحمد القوم السرى»[3]

ولن يعلم أحد مقدار هذا الثواب وعظمته على الحقيقة إلا حين يراه ويعاينه يوم الجزاء، وكل ما نفعله هنا هو محاولات الاستكشاف وبث اليقين بالمكافآت، لكن ما عند الله فوق ما يطيقه عقل بشر، والموقنون يعلمون هذا، ويدركون أن إخفاء الثواب عنهم هو أعظم جائزة لهم، لما فيه من تشويق النفس وتحفيزها على البذل.

---

(١) مدارج السالكين ٢/ ١٥٦

(٢) اليقين لابن أبي الدنيا ص ٢٠ – دار الكتب العلمية – ط ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

(٢) شعب الإيمان للبيهقي ٣/ ١٦٩

ومن أنواع الطاعات التي لا تُنجز إلا إذا أخذ فيها اليقين مكان الصدارة، وهي هنا على سبيل المثال لا الاستقصاء:

١- الأذان:

وانظر بقلبك إلى ثواب الأذان وابك على ما ضاع منك من ثواب، فعن أبي عمارة **البراء بن عازب** ﷺ [ت: ٧١] قال: قال النبي ﷺ:

«إن الله وملائكته يصلون على الصف المقدم، والمؤذن يُغفر له مدى صوته[1]، ويُصدِّقه من سمعه من رطب ويابس، وله أجر من صلى معه»[2].

تأمل أخي:

أي أنك إذا أذَّنت مثلاً لصلاة الفجر فصلى خلفك ١٠ مصلين، فكأنك قمت عشر ليالٍ، لأن من صلى الفجر في جماعة فكأنما قام الليل كله، وإذا أذنت لصلاة العشاء فصلى معك ٦٠ مصليًا؛ فأنك قمت الليل شهرًا؛ لأن من صلى العشاء في جماعة فكأنما قام نصف الليل، وأنت – أيها المؤذن – الذي دللت هؤلاء المصلين على هذا الخير بأذانك.

ألا تصدقون .. ألا تؤمنون؟! كلا .. بل لا توقنون، ولو أيقنتم لكان الحال غير ما أنتم عليه عاكفون.

(١) قال الخطابي: يريد أن المكان الذي ينتهي إليه الصوت لو يقدر أن يكون ما بين أقصاه وبين مقامه الذي هو فيه ذنوب تملأ هذه المسافة لغفرها الله.
(٢) صحيح: رواه أحمد والنسائي كما في صحيح الترغيب والترهيب رقم: ٢٣٠.

لما سمع الصحابة ذلك غبطوا المؤذنين لعظيم ثوابهم عند الله، وأراد كل منهم أن ينال ما نالوه من ثواب، ولكن أني لهم ذلك وما من مسجد إلا مسجد واحد، فذهب رجل إلى النبي ﷺ قائلاً: يا رسول الله .. إن المؤذنين يفضلوننا، فقال النبي ﷺ دالاً إياه على وسيلة التعويض:

«قل كما يقولون، فإذا انتهيت فسل تُعطه»[(١)].

آه.. لو أيقن الناس بما في الأذان من ثواب وفضل ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا، كما فعل الصحابة يوم القادسية بعد أن أصيب المؤذن فتشاحَّ الناس في الأذان، فاختصموا إلى **سعد بن أبي وقاص** ﷺ [ت: ٥٥] فأقرع بينهم، مما دفع الإمام البخاري [ت: ٢٥٦] إلى أن يورد ذلك في صحيحه (باب الاستهام في الأذان، ويذكر أن أقوامًا اختلفوا في الأذان فأقرع بينهم سعد)؛ ولذا جاء في الحديث الأشمل:

«لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا، ولو يعلمون ما في التهجير لاستبقوا إليه، ولو يعلمون ما في العتمة والصبح لأتوهما ولو حبوًا»[(٢)].

ومعنى «لو يعلم» أي لو أيقنوا بما ادخر لهم من الثواب الجزيل مما لا يدخل تحت حصر أو عد، فكل علم لا ينبني عليه عمل هو علم ناقص أو

---

(١) صحيح: رواه أبو داود والنسائي عن عبد الله بن عمرو ﷺ كما في صحيح الترغيب والترهيب رقم: ٢٥١.

(٢) صحيح: رواه مالك وأحمد والشيخان والنسائي عن أبي هريرة ﷺ كما في ص ج ص رقم: ٥٣٣٩، والتهجير هو التبكير لصلاة الظهر.

شك ظاهر، ولو أن رجلاً أخبرك أن عقربًا تحت قدمك، فقلت لـه: جـزاك الله خيرًا على نصيحتك، وسأسعى في البعد عنه في أقرب فرصـة، دون أن تنتفض هاربًا، أتكون قد علمت؟! هذا علم وما هو بعلم، أو فهم وما هـو بيقين، ولو أيقنت حقًّا لقفزت وصرخت، وفي الحديث تجهيل للمتسـاهلين في هذه العبادة، وتقريع لهم بأنهم يرتابون في قول الصادق المصـدوق، وإلا كانوا أول العاملين بما يقول.

إن في الحـديث تصـريحًا بـأن النـاس لـو علمـوا ثـواب الله وعـاينوه لازدحموا عليه حتى يقترعوا من عظمة ما رأوا، ولكن هذا الثـواب غيـب، ومن لم يصدِّق رسول الله تحسَّر غدًا حين يتراءى أهل الجنة لبعض، ويـرى ساكن أدنى درجات الجنة ساكن الفردوس الأعلى فيها.

إخواني..

أيكون حالنا كحال هؤلاء أم كحال أصحاب عمر بـن الخطـاب [ت: ٢٣] الـذي كـان حريصًـا علـى اختبـار منسوب اليقين في قلوب الناس، ومواظبًا على التحليل الإيمـاني المسـتمر والمراقبـة الدائمـة لأحـوال الأمـة، والتغيرات التي قد تطرأ على كل شرائحها في علاقتها بربها، فسأل أصحابه يومًا: من مؤذنوكم اليوم؟ قالوا: موالينا وعبيدنا، فقال: «إن ذلك لنقص كبير»(١).

(١) حلية الأولياء ٤/ ١٦١.

شك ظاهر، ولو أن رجلاً أخبرك أن عقربًا تحت قدمك، فقلت له: جزاك الله خيرًا على نصيحتك، وسأسعى في البعد عنه في أقرب فرصة، دون أن تنتفض هاربًا، أتكون قد علمت؟! هذا علم وما هو بعلم، أو فهم وما هو يقين، ولو أيقنت حقًا لقفزت وصرخت، وفي الحديث تجهيل للمتساهلين في هذه العبادة، وتقريع لهم بأنهم يرتابون في قول الصادق المصدوق، وإلا كانوا أول العاملين بما يقول.

إن في الحديث تصريحًا بأن الناس لو علموا ثواب الله وعاينوه لازدحموا عليه حتى يقترعوا من عظمة ما رأوا، ولكن هذا الثواب غيب، ومن لم يصدِّق رسول الله تحسَّر غدًا حين يتراءى أهل الجنة لبعض، ويرى ساكن أدنى درجات الجنة ساكن الفردوس الأعلى فيها.

إخواني..

أيكون حالنا كحال هؤلاء أم كحال أصحاب عمر بن الخطاب [ت: ٢٣] الذي كان حريصًا على اختبار منسوب اليقين في قلوب الناس، ومواظبًا على التحليل الإيماني المستمر والمراقبة الدائمة لأحوال الأمة، والتغيرات التي قد تطرأ على كل شرائحها في علاقتها بربها، فسأل أصحابه يومًا: من مؤذنوكم اليوم؟ قالوا: موالينا وعبيدنا، فقال: «إن ذلك لنقص كبير»(١).

(١) حلية الأولياء ٤/ ١٦١.

سنن الأذان الخمسة

قال ابن القيم [ت: ٧٥١] في كتابه زاد المعاد:

«وأما هديه في الذكر عند الأذان وبعده فشرع لأمته منه خمسة أنواع:

أحدها: أن يقول السامع كما يقول المؤذن إلا في لفظ حي على الصلاة حي على الفلاح، فإنه صحَّ عنه إبدالهما بـ (لا حول ولا قوة إلا بالله).

الثاني: أن يقول: وأنا أشهد ألا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله... رضيت بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد رسولاً، وأخبر أن من قال ذلك غُفر له ذنبه.

الثالث: أن يصلي على النبي بعد فراغه من إجابة المؤذن، وأكمل ما يُصلي عليه به ويصل إليه هي الصلاة الإبراهيمية كما علم أمته أن يصلوا عليه، فلا صلاة عليه أكمل منها.

الرابع: أن يقول بعد صلاته عليه: اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمدًا الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقامًا محمودًا الذي وعدته، إنك لا تخلف الميعاد.

هكذا جاء بهذا اللفظ مقامًا محمودًا بلا ألف ولا لام وهكذا صح عنه.

الخامس:

أن يدعو لنفسه بعد ذلك ويسأل الله من فضله فإنه يستجاب له كما في السنن عنه: «قل كما يقولون (يعني المؤذنين) فإذا انتهيت فسل تعطه»[1].

٢- ذكر الله:

لما أيقن يونس بن عبيد [ت: ١٣٩] بثواب الذكر انطلق يقرع آذان مؤثري الدنيا على الآخرة بكلماته التي تُعدُّ بحقٍّ ميزانًا تقيس به همَّ قلبك ومؤشرًا تعرف به وجهة سيرك: أدنيوي أنت أم أخروي؟، فقال رحمه الله:

«من لم تكن تسبيحة أو تهليلة واحدة خيرًا عنده من الدنيا وما فيها فهو ممن آثر دنياه على آخرته»[2].

ويوجه أبو عبد الله صريح عتابه لك في كلمات يكسوها حرصه عليك وحبه لك فيقول: «إذا كان عندك ما أعطى الله نوحًا وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمدًا ولا تراه شيئًا، وإنما تريد ما أعطى الله النمرود وفرعون وهامان، فمتى تُفلح؟!»[3].

أخانا الحبيب:

حتى متى أنت في دنياك منشغل   وعامل الله عن دنياه مشغول

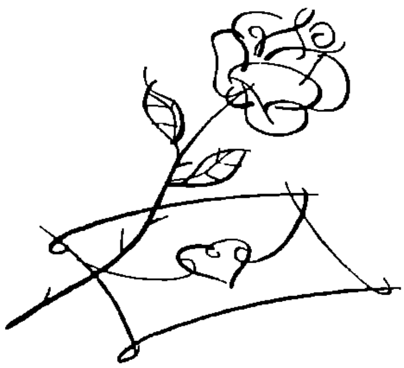
وليس بالكلمات وحدها يوقنون بل بالأفعال، فيستشعر أحدهم

(١) زاد المعاد ٢/ ٣٩١، ٣٩٢ بتصرف يسير. ابن قيم الجوزية. ط. مؤسسة الرسالة.
(٢) تنبيه المغترين ص ٤١. الشعراني. ط دار إحياء الكتب العربية.
(٣) صفة الصفوة ٤/ ١٩٧ . ابن الجوزي. ط دار الفكر.

الخسارة الفادحة المترتبة على ترك الذكر لحظة واحدة. يخبرنا عن ذلك سعيد بن المسيب [ت: ٩٤] فيقول:

«كنا عند سعد بن أبي وقاص فسكت سكتة، فقال: إنه قد قلت في سكتتي هذه خير مما يسقي الفرات والنيل، فقيل له: وما هو؟ قال: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر»[١]

إن الذكر غراس الجنة، ومن قعد عنه لحظة ندم غدًا لحظات بل سنوات وتجرع مرارة الحسرات، وكلما قوي يقين القلب بالأجر هجر اللسان الصمت ليشتغل بالذكر.



(١) الزهد ص ٢٣٢. أحمد بن حنبل. ط دار الريان.

سيد الموقنين

لما انكشفت الحجُب أمام النبي ﷺ رأى من عظمة أجر الذكر ما لم نره، فكان حاله مع الذكر كما وصفه ابن القيم [ت: ٧٥١] قائلاً:

«كان النبي ﷺ أكمل الخلق ذكرًا لله عز وجل، بل كان كلامه كله في ذكر الله وما والاه، وكان أمره ونهيه وتشريعه للأمة ذكرًا منه لله، وإخباره عن أسماء الرب وصفاته وأحكامه وأفعاله ووعده ووعيده ذكرًا منه له، وثناؤه عليه بآلائه وتمجيده وحمده وتسبيحه ذكرًا منه له، وسؤاله ودعاؤه إياه ورغبته ورهبته ذكرًا منه، وسكوته وصمته ذكرًا منه له بقلبه، فكان ذاكرًا الله في كل أحيانه وعلى جميع أحواله، وكان ذكره لله يجري مع أنفاسه قائمًا وقاعدًا وعلى جنبه وفي مشيه وركوبه ومسيره ونزوله وظعنه وإقامته»[1].

٣- الإنفاق في سبيل الله:

الإنفاق في سبيل الله من أبرز علامات الموقنين، وأجدى وسائل قياس منسوبه في القلب، ذلك أنك حين تنفق مالك تشتري به الجنة؛ وهي غيب لم تره، جاءك خبرها على لسان رسول كريم؛ وهو أيضًا غيب لم تره، ومبعوث لك من إله جليل لكنك أيضًا لم تره، ومع ذلك آمنت وأيقنت، وصدق فعلك قولك، وأثبتَّ إيمانك وثقلَّت ميزانك بإخراجك مالك،

(١) زاد المعاد ٢/ ٣٦٥.

لتقدِّم بذلك الدليل الظاهر على صدق الإيمان الباطن؛ لذا كان الحسن البصري كثيرًا ما يقول:

«من أيقن بالخلف جاد بالعطية»(١).

يستحث الناس بذلك على البذل في سبيل الله وإيثار ما عند الله وشراء موعود الله، فإن لم تُجْد معك كلماته ولم تؤثر فيك، فعسى أن يكون في مواقف **عبد الله بن عمر** ﷺ [ت: ٧٣] الدواء الناجع والأثر المبين.

بلغ من يقين **عبد الله بن عمر** ﷺ بثواب الله وحسن جزائه أنه كان إذا اشتد إعجابه بشيء من ماله قرَّبه لله عز وجل، وكان يمتلك جارية، فلما اشتد إعجابه بها أعتقها وزوَّجها مولى له!! فولدت غلامًا. قال **نافع**: فلقد رأيت **عبد الله بن عمر** يأخذ ذلك الصبي فيقبله ثم يقول: واهًا لريح فلانة (يعني الجارية التي أعتق)(٢).

قال مولاه **نافع**: «وكان عبيده يعرفون ذلك منه، فربما شمر أحدهم فيلزم المسجد، فإذا رآه **ابن عمر** على هذه الحال الحسنة أعتقه، فيقول أصحابه: يا أبا عبد الرحمن .. والله ما بهم إلا أن يخدعوك!! فيقول **ابن عمر**: فمن خدعنا لله انخدعنا له»(٣).

ما كان يبتدع أو يسلك مسلكًا غريبًا أو يؤلف نهجًا غير نهج النبوة،

(١) البيان والتبيين ٣/ ١٤٣
(٢) حياة الصحابة ٢/ ١٥٥.
(٢) حلية الأولياء ١/ ٢٩٤.

بل يقتفي الأثر شبرًا بشبر، وذراعًا بذراع كما قالت عائشة رضي الله عنها: «ما رأيت أحدًا ألزم للأمر الأول من ابن عمر»[1].

هل قرأت رسائله؟!

والله لطيف جواد كريم يبعث برسائله المشجِّعة إلى عباده المنفقين تغريهم بالبذل وتدفعهم إليه دفعًا.

الصحابي الجليل سعيد بن العاص ﷺ [ت: ٥٨] أحد أجود أهل الحجاز الثلاثة، وهو الذي كان إذا سأله سائل فلم يكن عنده ما يعطيه له قال: «اكتب عليَّ سجلا إلى أيام يُسري »[2]

هذا الصحابي الجليل لما عوتب في كثرة العطاء، برَّر ذلك بقوله: « إن الله تعالى عوَّدني أن يتفضَّل عليَّ، وعوَّدته أن أتفضَّل على عباده، فأخاف إن قطعت أن يقطع »[3]

ولماذا أسوق لكم نماذج القرن الأول الهجري؟! وأنا بين يدي أخ فاضل يعيش بين أظهرنا جعل على نفسه أن يُخرِج ثلث راتبه كل شهر لفلسطين، وكان راتبه ألفين من الجنيهات، فأبدله الله بذلك عملا بضعف راتبه الأول، واستمر على عادته هذه سنة كاملة، فكان أن كافأه الله بعمل راتبه اثني عشر ألف جنيه، واستمر إلى الآن وما قطع عادته هذه، وما قطع الله عنه الزيادة، وما زال العرض ساريًا !! ومن أراد منكم أن يجرِّب فليتقدم!!

---

(١) نزهة الفضلاء ١/ ٣٦٥.

(١) نثر الدر ٢/ ٧٤.

(٢) حكم وأخلاق عربية، محمد المكي بن الحسين ص ٩٦ – الدار الحسينية للكتاب ط ١٤١٦ –١٩٩٥.

بين نومنا ويقظته!!

عن ابن مسعود عقبة بن عمرو الأنصاري ﷺ [ت:٤٢] قال: جاء رجل بناقة مخطومة إلى النبي ﷺ، فقال: هذه في سبيل الله، فقال رسول الله ﷺ: «لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة كلها مخطومة»[١].

قال الإمام النووي [ت: ٦٧٦]: «معنى مخطومة أي فيها خطام وهو قريب من الزمام، ويُحتمل أن المراد له أجر سبعمائة ناقة، ويُحتمل أن يكون على ظاهره: أي يكون له في الجنة بها سبعمائة، كل واحدة منهن مخطومة يركبهن حيث شاء للتنزه، وهذا الاحتمال أظهر»[٢].

ومن روائع قصص اليقين وعجائب أعلام الموقنين المتعلّقة بهذا الحديث المغري قصة شيخ الإسلام، وعالم زمانه وأمير الأتقياء في وقته، الحافظ الغازي الإمام عبد الله بن المبارك [ت: ١٨١] الذي حكى عنه الإمام القرطبي [ت: ٦٧١] في تذكرته أنه خرج إلى غزو، فرأى رجلاً حزينًا قد مات فرسه، فبقي محزونًا، فقال له: بعني إياه بأربعمائة درهم، ففعل الرجل ذلك أي باعه له، فرأى الرجل من ليلته في المنام كأن القيامة قد قامت وفرسه في الجنة وخلفه سبعمائة فرس، فأراد أن يأخذه فنودي أن دعه فإنه لابن المبارك، وقد كان لك بالأمس، فلما أصبح جاء إلى ابن المبارك وطلب

(١) صحيح: رواه مسلم عن أبي مسعود الأنصاري رقم:١٨٩٢.
(٢) شرح النووي على صحيح مسلم ١٣/ ٣٨ بتصرف يسير.

منه الإقالة أي أن يرُدَّ إليه فرسه، فقال له: ولم؟ قال: فقصَّ عليه القصة، فقال له: اذهب فما رأيته في المنام رأيناه في اليقظة!![1]

وما هذا إلا لعلو درجته في سلم اليقين وشدة ثقته بما عند الله، حتى بزغت شمس الغيب في فؤاده، وسطع نور الثواب عليه فهو يراه بعينيه ويلمسه بكلتا يديه، فمتى وصولنا إلى ما وصل إليه **ابن المبارك**؟! متى؟!

٤- صلاة الجمعة:

عن أوس بن أوس قال: قال رسول الله ﷺ: «**من غسَّل يوم الجمعة واغتسل، وبكَّر وابتكر، ومشى ولم يركب، ودنا من الإمام، واستمع ولم يلغُ، كان له بكل خطوة أجر سنة: صيامها وقيامها**»[2].

قال وكيع: اغتسل هو وغسَّل امرأته (أحوجها إلى الغسل كناية عن الجماع)، وقال **عبد الله بن المبارك** [ت: ٧٩٧]: من غسَّل واغتسل يعني غسل رأسه واغتسل.

لما قرأت هذا الحديث لأول مرة استعظمت ثوابه بالمقارنة مع يسر وسهولة تنفيذه، فشككت في صحته حتى ذهبت إلى شيخ من شيوخي لأسأله عن صحة الحديث، وأخبرته عن سبب قدومي، وقبل أن يسمع مني

(١) التذكرة للقرطبي ص ٥٦٤.

(٢) صحيح: رواه الترمذي وابن ماجة عن أوس بن أوس ﷺ كما في مشكاة المصابيح رقم: ٤٣٧، والحديث يحوي خمس شروط: غسل يوم الجمعة، والتبكير، والمشي وعدم الركوب، والتماس الصف الأول، واستماع الخطبة وعدم الانشغال عنها.

النص قال مداعبًا: وهل يعمل الناس بما جاء فيه؟! قلت: لا، فقال بفراسة: إذن فهو صحيح!! فقلت متعجبًا من رده قبل أن يسمع الحديث: ولماذا؟! فأجابني: لأن رسول الله ﷺ حين يرى انصراف الناس عن خير وفير وثواب غزير يكشف لهم بعض ثوابه وأجره لعلهم فيه يرغبون وإليه يتسابقون، وأظن حديثك من هذا النوع، فما كان مني عندها إلا أن عاجلته بالنص فأثبت لي صحته!!

أخي الحبيب..

اختبر يقينك ويقين من حولك بثواب هذه العبادة الرائعة، واذهب إلى الجمعة قبل الخطبة بساعة واحدة لتفاجأ أن المسجد خاوٍ يشكو غفلة المسلمين وقلة الموقنين، فأي درجة من اليقين حصّلنا حتى نرجو ثواب الله ونطمع في جنته.

ولهذا الفضل العظيم والثواب الرائع فهم أئمة اليقين من سلفنا المبارك أن أي حرمان من ثواب التبكير إلى الجمعة ما هو إلا عقوبة على ذنب أو مؤاخذة على تقصير في خير، فعن أبي عثمان النيسابوري أنه انقطع شسع نعله في مضيه إلى الجمعة، فتعوّق لإصلاحه ساعة ثم قال:

«ما انقطع إلا لأني ما اغتسلت غسل الجمعة»[1]

(١) صيد الخاطر ص ٥٠.

لهذا اجتهد

حُكي أن أصحاب سفيان الثوري [ت: ١٦١] رحمه الله كلموه فيما كانوا يرون من خوفه واجتهاده ورقة حاله، فقالوا: يا أستاذ: لو نقصت من هذا الجهد نلت مرادك أيضًا إن شاء الله تعالى، فقال سفيان: كيف لا أجتهد وقد بلغني أن أهل الجنة يكونون في منازلهم، فيتجلى لهم نور تضيء له الجنات الثماه، فيظنون أن ذلك نور من جهة الرب -سبحانه وتعالى- فيخرون ساجدين، فينادون: أن ارفعوا رؤوسكم، ليس الذي تظنون، إنما هو نور جارية تبسمت في وجه زوجها، ثم أنشأ يقول:

ما ضَرَّ من كانت الفردوس منزله ... ماذا تحمل من بؤس وإقتار
تراه يمشي كئيبًا خائفًا وجلاً ... إلى المساجد يرجو رحمة الباري
يا نفس مالك من صبر على لهب ... قد حان أن تُقبلي من بعد إدبار[1]

٥- المشي إلى المساجد:

عن أبي بن كعب رضي الله عنه (ت: ٣٢) قال: كان رجل من الأنصار بيته أقصى بيت بالمدينة، وكان لا تخطئه الصلاة مع رسول الله ﷺ. قال: فتوجعت له، فقلت: يا فلان لو أنك اشتريت حمارا يقيك الرمض ويرفعك من الوقع ويقيك هوام الأرض، فقال: والله ما أحب أن بيتي بطنب بيت محمد ﷺ. قال: فحملت به حملا حتى أتيت النبي ﷺ، فذكرت ذلك له، فدعاه فسأله فذكر له

(١) منهاج العابدين ص ١٨٦. أبو حامد الغزالي . ط دار الحكمة.

مثل ذلك، وذكر أنه يرجو في أثره، فقال رسول الله ﷺ:

«إن لك ما احتسبت»(١)

وفي رواية ابن حبان:

«أعطاك الله ذلك أجمع، أنطاك الله ما احتسبت أجمع»(٢)

وانظر.. حين أيقن هذا الصحابي بثواب الله تحمَّل مشقة الطريق وبُعد الحبيب، لأنه يعلم أن المحبة الحقيقية تدفعك إلى عمل صالح يجمعك بحبيبك في الحياة الأبدية وهي الأهم، فلا بُعد هناك ولا فراق.

وهي وإن كانت تجربة فردية مع هذا الصحابي الأنصاري، لكنها كانت تجربة جماعية مع بني سلمة، فعن جابر بن عبدالله ﷺ (ت: ٧٢) قال: خلت البقاع حول المسجد، فأراد بنو سلمة أن ينتقلوا إلى قرب المسجد، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال لهم: **إنه بلغني أنكم تريدون أن تنتقلوا قرب المسجد.** قالوا: نعم يا رسول الله، قد أردنا ذلك، فقال ﷺ حاثا إياهم على لزوم بيوتهم:

«يا بني سلمة.. ديارَكُم تُكتَبْ آثارُكُم ، ديارَكُم تُكتَب آثارُكُم»(٣)

(٢) صحيح : رواه مسلم وابن ماجة وأبو داود واللفظ لأبي داود كما في صحيح الجامع رقم ٣٩٢٢.

(١) صحيح كما في صحيح ابن حبان رقم ٢٠٤٠. قال الشيخ شعيب الأرناؤوط : صحيح على شرط الشيخين ، ومعنى أنطاك أعطاك ، وهو لغة أهل اليمن ، كما جاء في النهاية لابن الأثير ٥/ ٧٦.

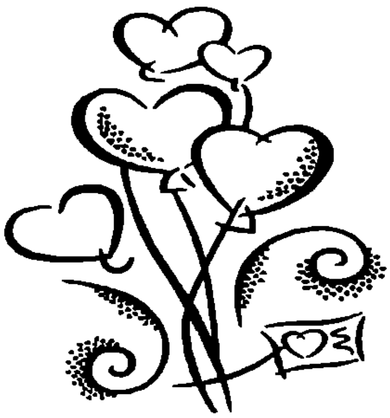
(٢) صحيح : رواه مسلم وأحمد عن جابر كما في صحيح الجامع رقم : ٧٨٩٨.

ب- الصبر عن المعصية:

حُفَّت النار بالشهوات ولا يصبر على هذه الشهوات إلا موقن بما أعده الله للعصاة من عذاب أليم يصلونه في جهنم وبئس المصير، وهو صبر يأتي في المرتبة الثانية بعد الصبر على الطاعة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية [ت: ٧٢٨]:

«كان صبر يوسف على مطاوعة امرأة العزيز على شأنها: أكمل من صبره على إلقاء إخوته له في الجُبِّ وبيعه وتفريقهم بينه وبين أبيه، فإن هذه أمور جرت عليه بغير اختياره لا كسب له فيها ليس للعبد فيها حيلة غير الصبر، وأما صبره عن المعصية: فصبر اختيار ورضا ومحاربة للنفس»[1].



(١) مدارج السالكين ٢/ ١٥٦.

حديث مرعب

إلى من يشكو قلة الصبر عن المعاصي، وانهيار سدود مقاومته أمام الشهوات، وتغلب الشيطان عليه في معظم الجولات، دواؤك تجده في حديث سمرة بن جندب الوارد في عذاب القبر وكيف يعذب الناس فيه، وهذا الحديث عبارة عن رؤيا رآها النبي ﷺ وأخبر بها أصحابه يومًا بعد أن صلى بهم الصبح، ونحن نعلم أن منام الرسول ﷺ حقيقة تمامًا كيقظته، وفيه أن رسول الله ﷺ أتاه ملكان هما جبريل وميكائيل، وأنهما ابتعثاه (أرسلاه) وقالا له: انطلق فانطلق معهما، فأطلعاه على أناس من أمته يعذبون، وفي آخر هذه الحديث سألهم:

«قلت لهما فإني قد رأيت منذ الليلة عجبًا فما هذا الذي رأيت؟!».

قال: قالا لي: أما إنا سنخبرك:

«أما الرجل الأول الذي أتيت عليه يثلغ (يكسر) رأسه بالحجر، فإنه الرجل يأخذ القرآن فيرفضه، وينام عن الصلاة المكتوبة».

وتبرير عذاب تارك القرآن بالصورة المذكورة أنه لما رفض أشرف الأشياء وهو القرآن عوقب في أشرف الأعضاء وهو الرأس، وأما النائم عن الصلاة فجعلت العقوبة في رأسه لأن النوم موضعه الرأس.

«وأما الرجل الذي أتيت عليه يشرشر شدقه إلى قفاه، ومنخره إلى قفاه، وعينه إلى قفاه، فإنه الرجل يغدو من بيته فيكذب الكذبة تبلغ الآفاق».

وتبرير عذاب الكاذب بالصورة المذكورة هي أن شرشرة شدق الكاذب ما هو إلا إنزال للعقوبة بمحل المعصية.

«وأما الرجال والنساء العراة الذين في مثل بناء التنور، فإنهم الزناة والزواني».

وتبرير عذاب الزواني والزناة وهم عراة هي أنهم يستحقون أن يفضحوا، لأن عادتهم في الدنيا أن يستتروا في الخلوة فعوقبوا بالهتك، والحكمة في أن العذاب يأتيهم من تحتهم كون جنايتهم من قبل أعضائهم السفلى.

«وأما الرجل الذي أتيت عليه يسبح في النهر ويلقم الحجر فإنه آكل الربا».

وإنما عوقب آكل الربا بسباحته في النهر الأحمر وإلقامه الحجارة، لأن أصل الربا يجري في الذهب والذهب أحمر، وأما إلقام الملك له الحجر فإنه إشارة إلى أن الربا لا يغني عنه شيئًا، فإن صاحبه يتخيل أن ماله يزداد والله من ورائه يمحقه.

وقد يسأل سائل:

ما سبب اقتصار الحديث على ذكر هذه الذنوب فحسب، وهل لا يُعذب في قبره في فعل غيرها من الذنوب؟!

يجيبك عن هذا السؤال الإمام الكرماني [ت: ٧٨٦] فيقول:

«الحكمة في الاقتصار على من ذكر من العصاة دون غيرهم أن العقوبة تتعلق بالقول أو الفعل، فالأول على وجود ما لا ينبغي منه أن يُقال، والثاني إما بدني وإما مالي، فذكر لكل منهم مثال يُنبه به على من عداه» (١)

والعاقل هو من قايس بين اللذة العابرة المترتبة على المعصية والعذاب الوخيم الذي تستوجبه في القبر، لتظهر نتيجة المقارنة على عمله: صبرًا عن المعاصي، وصيانة من الزلات، واجتنابًا للمحرمات.

قال الإمام ابن القيم [ت: ٧٥١] في كلام شافٍ وحروف هادية وهو يرسي قاعدة من قواعد التفكير العقلي الذي يقود حتمًا إلى بناء صرح من صروح الإيمان في القلب:

«فمتى عرف التفاوت بين اللذتين والألمين، وأنه لا نسبة لأحدهما إلى الآخر هان عليه ترك أدنى اللذتين لتحصيل أعلاهما، واحتمال أيسر الألمين لدفع أعلاهما، وإذا تقررت هذه القاعدة فلذة الآخرة أعظم وأدوم، ولذة الدنيا أصغر وأقصر، وكذلك ألم الآخرة وألم الدنيا، والمُعوَّل في ذلك على الإيمان واليقين، فإذا قوي اليقين وباشر القلب آثر الأعلى على الأدنى في جانب اللذة، واحتمل الألم الأسهل على الأصعب»(٢).

جـ- الصبر على البلاء:

والعلاقة بينه وبين اليقين شديدة الوضوح، ولهذا كان من دعاء النبي

(١) فتح الباري ١٢/ ٤٤٦. ط دار المعرفة.
(٢) الفوائد ص ٢٠٠، ٢٠١.

ﷺ الذي كان دائمًا يقوله في كل مجلس: «**ومن اليقين ما تُهَوِّن به علينا مصائب الدنيا**»، لأن مما يعين على الصبر على محن الزمان ونوائبه:

(ملاحظة حسن الجزاء، وعلى حسب ملاحظته والوثوق به ومطالعته يخف حمل البلاء لشهود العوض، وهذا يُخفِّف على كل متحمل مشقة عظيمة حملها لما يلاحظ من لذة عاقبتها وظفره بها، ولولا ذلك لتعطلت مصالح الدنيا والآخرة وما أقدم أحد على تحمل مشقة عاجلة إلا لثمرة مؤجلة، فالنفس موكلة بحب العاجل، وإنما خاصة العقل: تلمح العواقب ومطالعة الغايات)[1].

وهو ما وصل إليه **ابن تيمية** في كتاب الاستقامة:

«ولا يمكن العبد أن يصبر إذا لم يكن له ما يطمئن له، ويغتذي به، وهو اليقين»[2].

ومن حسن الجزاء فعالية الدواء، فالابتلاء من أنجع أدوية علاج القلب، لكن ماذا يعالج؟!

قال **ابن القيم** [ت: ٧٥١]: «إن ابتلاء المؤمن كالدواء له يستخرج منه الأدواء التي لو بقيت فيه أهلكته، أو نقصت من ثوابه وأنزلت درجته، فيستخرج الابتلاء والامتحان منه تلك الأدواء»[3]

---

(١) مدارج السالكين ص ٢/ ١٦٦. ط دار الكتاب العربي.

(٢) الاستقامة: ٢/ ١٦١

(٣) حكم الابتلاء ص ٤٠، ٤١ الطبعة الثانية. دار الكلمة الطيبة، ١٤٠٤هـ.

فيخرج الله منه بهذا الابتلاء داء العجب، وينزع منه الكبر والبطر والعلو والاستطالة، ويرزقه التواضع، فيعود مقبلاً على الله بقلبه ضارعًا باكيًا، وينهض بين يديه في جوف الليل، ويطيل السجود، ويكثر من الاستغفار، ويتوب من كل ما اقترب من سوء.

إنها البلايا كذلك تُشهده مشاهد لم يكن ليراها دون ابتلاء، ولا ليحس بها وهو يرتدي ثوب العافية على الدوام، وفي ذلك يقول **ابن القيم**:

«إذا جرى على العبد مقدور يكرهه فله فيه ستة مشاهد:

الأول: مشهد التوحيد، وأن الله هو الذي قدره وشاءه وخلقه، وما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

الثاني: مشهد العدل، وأنه ماضٍ فيه حكمه، عدلٌ فيه قضاؤه.

الثالث: مشهد الرحمة، وأن رحمته في هذا المقدور غالبة لغضبه وانتقامه، ورحمته حشوه أي ظاهره بلاء وباطنه رحمة.

الرابع: مشهد الحكمة، وأن حكمته سبحانه اقتضت ذلك، لم يُقَدِّره سُدى ولا قضاه عبثًا.

الخامس: مشهد الحمد، وأن له سبحانه الحمد التام على ذلك من جميع وجوهه.

السادس: مشهد العبودية، وأنه عبد محض من كل وجه تجري عليه أحكام سيده وأقضيته بحكم كونه ملكه وعبده، فيصرفه تحت أحكامه القدرية كما يصرفه تحت أحكامه الدينية، فهو محل

لجريان هذه الأحكام عليه»[1].

لذلك حكي عن امرأة من العابدات أنهـا عثـرت، فانقطعـت إصـبعها فضحكت، فقال لها بعض من معها: أتضحكين وقد انقطعـت إصـبعك؟! فقالت:

«أخاطبك على قدر عقلك، حلاوة أجرها أنستني مرارة ألمها»[2]

نعم البلاء مؤلم والصدمة مفجعـة، ولسـت أطلـب منـك بلـوغ نفـس مستوى هذه المرأة العابدة، ولا أرجو أن تصل بقلبك إلى الدرجة الملائكية، إنما أوضح مقصدي ومرادي بمثل جميل بل بمثلين رائعين أوردهما ابن قدامة المقدسي [ت: ٧٤٤] في كتابه الثمين مختصر منهاج القاصدين فقال:

> «ومثـال هـذا رجـل مـريض لـه شـربة لمرضـه، فسـعى في طلب حوائجها، وأنفـق عليهـا مـالاً، فلمـا تمـت، فـرح بتمامهـا وتناولها لما يرجو لهـا مـن العافيـة، فأمـا طبعـه، فمـا زالـت عنـه كراهة التناول أصلاً.
>
> ولـو أن ملكًـا قـال لرجـل فقـير: كلمـا ضـربتـك بهـذا العـود اللطيـف ضـربة أعطيتـك ألـف دينـار، لأحب كثرة الضرب، لا لأنه لا يؤلم، ولكن لما يرجـو مــن عاقبــة، وإن أنكــاه الضــرب، فكــذلك السـلف تلمحوا الثواب، فهان عليهم البلاء»[3].

(١) الفوائد ص ٣٢.　　(٢) السابق ص ٥٧١.
(٣) مختصر منهاج القاصدين ص ٢٧٤. ط دار التراث.

وهل يصبر الإنسان إلا إذا أيقن بالبدل وآمن بالمكافأة؟! قال زهير بن نعيم الباني:

«إن هذا الأمر لا يتم إلا بشيئين: الصبر واليقين، فإن كان يقينًا ولم يكن معه صبر لم يتم، فإن كان صبرًا ولم يكن معه يقين لم يتم».

وقد ضرب لهما أبو الدرداء ﷺ [ت: ٣٢] مثلاً فقال:

«مثل اليقين والصبر مثل فدادين (مزارعين) يحفران الأرض فإذا جلس واحد جلس الآخر»[1].

(١) صفة الصفوة ٤/ ٦، ٧. ابن الجوزي ط دار الفكر.

يقيـــن امرأة

وهذه امرأة أحد الدعاة إلى الله يُحبس زوجها ظلمًا وعدوانًا ضريبة واجبة يدفعها لسيره في طريق الرسل والأنبياء، وكان ذلك بعد زواجهما بثلاثة أشهر فيُحكم عليه بالسجن عشرين عامًا، ويشفق الرجل على زوجته، وتأبى نفسه الكريمة أن تكون زوجه أسيرة خارج القضبان وهو أسير من ورائها، فيبعث إليها رسالة يعرض عليها فيها أن يخلي سبيلها، فتبعث إليه خطابًا كُتِبت كلماتهُ بمدادٍ من يقين.

«لقد ذُقت معك نعيم الدنيا ثلاثة أشهر، أحين جاء أجر الآخرة تريد أن تستأثر به دوني؟! والله لا يُفرق بيني وبينك إلا الموت».

سبحان الله!! ما الذي يدفع مثل هذه الضعيفة أن تصبر هذا الصبر الذي لا تتحمله الجبال؟! ما المقابل الذي ستحصل عليه؟!

إنه اليقين في موعود الله والثقة بثوابه، إنها صورة الجنة والنار التي ترتسم في ذهنها واضحة غير مهتزة .. راسخة غير مشوشة؛ ولذلك تصبر وتحتسب وتضحي وترضى.

الماء أم الزيت؟!

قال ابن الجوزي [ت: ٥٩٧] مبينًا عاقبة الصبر:

«صُبَّ في القنديل ماء ثم صُبَّ زيت، فصعد الزيت على سطح الماء، فقال الماء: أنا الذي سقيت شجرتك فأين الأدب؟ لم ترتفع عليَّ؟!

قال الزيت: لأنك بينما كنت في باطن الأرض تجري على طريق السلامة، صبرتُ أنا على العصر وطحن الرحا، وبالصبر يرتفع القدر.

قال الماء: إلا أني أنا الأصل.

قال الزيت: استر عيبك ... فإنك لو لامست شعلة المصباح انطفأ»[1].

ولماذا نمضي بعيدًا في الأمثال ونحن بين أيدينا أنصع الحقيقة لا الخيال.

قال ابن القيم [ت: ٧٥١]:

«فإذا جئت إلى النبي وتأملت سيرته مع قومه وصبره في الله واحتماله ما لم يحتمله نبي قبله، وتلوُّن الأحوال عليه من سلم وخوف وغنى وفقر وأمن، وإقامة في وطنه وظعن عنه، وتركه لله، وَقْتل أحبابه وأوليائه بين يديه، وأذى الكفار له بسائر أنواع الأذى من القول والفعل والسحر والكذب والافتراء عليه والبهتان، وهو مع ذلك كله صابر على أمر الله، يدعو إلى الله، فلم يُؤذَ نبي ما أوذي، ولم يحتمل في الله ما احتمله، ولم يعط

(١) المدهش ص ١٩٦ بتصرف.

نبي ما أعطيه، فرفع الله له ذكره، وقرن اسمه باسمه، وجعله سيد الناس كلهم، وجعله أقرب الخلق إليه وسيلة، وأعظمهم عنده جاها، وأسمعهم عنده شفاعة، وكانت تلك المحن والابتلاء عين كرامته، وهي مما زاده الله بها شرفًا وفضلاً، وساقه بها إلى أعلى المقامات، وهذا حال ورثته من بعده الأمثل فالأمثل»(١).

٢- التوكل:

والعلاقة بين اليقين والتوكل جد وثيقة، والحقيقة أن التوكل ثمرة اليقين، ولهذا حسن اقتران الحق والهدى بالتوكل. قال الله تعالى: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ [النمل: ٧٩] فالحق: هو اليقين، وقالت رسل الله: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا﴾ [إبراهيم: ١٢].

ولشدة ارتباط التوكل باليقين كان زاهد البصرة طلق بن حبيب يكثر من هذا الدعاء: «اللهم إني أسألك توكُّل الموقنين بك ويقين المتوكلين عليك»(٢).

ما هو التوكل؟

هو عمل قلبي مقتضاه ترك تدبير النفس والاختيار بها، والانخلاع من حولك وقوتك إلى حول الله وقوته، وذلك عن طريق قطع تعلق القلب بأي أحد غير الله.

---

(١) مفتاح دار السعادة ص ٣٤٢. ط دار الحديث.
(٢) التوكل ص٦٩. الحافظ ابن أبي الدنيا.

إن تعلق القلب بغير الله يجمع عليه الشياطين من كل ناحية، بعد أن فاحت ريحه وانتشر خبره في مجتمع الأبالسة الواقفين بالمرصاد لأي ثغرة تحدث في جدار الفؤاد؛ لتتسلل وتحتل وتبسط نفوذها وتُضل. قال **سهل بن عبد الله التستري** [ت: ٢٨٣]:

«ما من قلب ولا نفس إلا والله مطلع عليها في ساعات الليل والنهار، فأيما قلب أو نفس رأى فيه حاجة إلى سواه سلط عليه إبليس»(١).

ولعشاق التميز وراغبي السكني في أعلى درجات الجنة قال **ابن القيم** [ت: ٧٥١] مبينًا نوعي التوكل ومفاضلاً بينهما:

أحدهما: توكل عليه في جلب حوائج العبد وحظوظه الدنيوية، أو دفع مكروهاته ومصائبه الدنيوية.

والثاني: التوكل على الله في حصول ما يحبه هو ويرضاه من الإيمان واليقين والجهاد والدعوة إليه.

وبين النوعين من الفضل ما لا يحصيه إلا الله، فمتى توكل عليه العبد في النوع الثاني حق توكله كفاه النوع الأول تمام الكفاية، ومتى توكل عليه في النوع الأول دون الثاني كفاه أيضًا، لكن لا يكون له عاقبة المتوكل فيما يحبه ويرضاه، فأعظم التوكل عليه التوكل في الهداية، وتجريد التوحيد، ومتابعة الرسول ﷺ، وجهاد أهل الباطل، فهذا توكل الرسل وخاصة أتباعهم»(٢).

(١) طبقات الصوفية ص ٢٠٨.
(٢) الفوائد: ٨٦.

آية التوكل الجامعة

قال عز وجل: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الفرقان: ٥٨].

سبحان الله .. كيف يلجأ أحد إلى غير الله بعد سماعه هذه الآية؟! ألم تر أنه أعلمك أنه لا يموت وجميع خلقه يموتون، ومن لا يستطيع أن يدفع عن نفسه الموت هل يصلح أن تستعين به وتتوكل عليه؟! ثم أمرك بالتسبيح بحمده وفي هذا فائدتان جليتان:

* الأول: التسبيح فيه تنزيه الله عن كل نقص وعيب وضعف وعجز، فإذا استقر هذا في القلب وامتلأت كل ذرة بهذا التبجيل والتعظيم والإجلال؛ سهل عليك استجلاب معنى التوكل على من هذه صفته وجمع الهم عليه.

* الثانية: أن التسبيح ذكر الله، وذكر الله يجلب معية الله **(وأنا معه إذا ذكرني)**، ومعية الله عون وإعانة ودعم وإمداد؛ ولذا فقوة المتوكلين وعزتهم مستمدة من قوة الله وعزته، وطمأنينة قلوبهم يقف وراءها سر: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

وفي ضوء هذه الآية تعرف لماذا أطلق **سليمان الخواص** قوله:

«لو عامل عبدٌ اللهَ بحسن التوكل وصدق النية له بطاعته، لاحتاجت إليه الأمراء ومن دونهم، فكيف يكون هذا محتاجًا وموئله إلى الغني الحميد؟!»[(١)].

---

(١) التوكل ص ٧٠.

أربـــاح المتوكلين

* عن ابن عباس رضي الله عنهما [ت: ٦٨] قال: حسبنا الله ونعم الوكيل قالها إبراهيم حين أُلقى في النار، وقالها محمد حين قالوا له: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

* قال النبي ﷺ: «**لو أنكم توكلون على الله حق توكله؛ لرزقكم كما يرزق الطير؛ تغدو خماصًا وتروح بطانًا**»(١).

* وقال ﷺ: «**إذا خرج الرجل من بيته فقال: بسم الله توكلت على الله ولا حول ولا قوة إلا بالله، قال: يُقال حينئذٍ: هُديت وكُفيت ووُقيت فتتنحى له الشياطين، فيقول الشيطان لشيطان آخر: كيف لك برجل قد هُدي وكُفي ووُقي**»(٢).

* وأخبر ﷺ أن المتوكلين في عداد السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بغير حساب، و «**هم الذين لا يسترقون ولا يتطيرون ولا يكتوون، وعلى ربهم يتوكلون**»(٣).

---

(١) صحيح: رواه أحمد والترمذي وابن ماجة عن عمر ﷺ كما في ص ج ص رقم: ٥٢٥٤.
(٢) رواه أبو داود في صحيحه رقم: ٤٢٤٩.
(٣) صحيح: رواه الشيخان عن عبد الله بن عباس ﷺ كما في ص ج ص رقم: ٣٩٩.

العاقبة اللذيذة

وانظر إلى التوكل العجيب الذي بلغه الإمام القدوة العارف سيد الزهاد إبراهيم بن أدهم [ت: ١٦٢] قال حذيفة المرعشي [ت: ٢٠٦]:

«أويتُ أنا وإبراهيم إلى مسجد خراب بالكوفة، وكان قد مضى علينا أيام لم نأكل فيها شيئًا، فقال لي: كأنك جائع، قلت: نعم، فأخذ رقعة فكتب فيها:

بسم الله الرحمن الرحيم أنت المقصود إليه بكل حال، المشار إليه بكل معنى، ثم قال لي: اخرج بهذه الرقعة، ولا تعلق قلبك بغير الله سبحانه وتعالى، وادفع هذه الرقعة إلى أول رجل تلقاه، فخرجنا فإذا رجل على بغلة فرفعتها إليه، فلما قرأها بكى ودفع إلي ستمائة دينار وانصرف، فجئت إبراهيم فأخبرته فقال: الآن يجيء فيسلم، فما كان غير قريب حتى جاء فأكب على رأس إبراهيم فأسلم»[1]

(١) البداية والنهاية ١٠/ ١٤٣.

طوق النجاة .. التوكل

كان أبو الحسن بنان الجمال الزاهد الواسطي [ت: ٣١٦] للهجرة شيخ الديار المصرية، وقد ذهب يومًا يقوم بدوره في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فطاش عقل أحمد بن طولون [ت: ٢٧٠] الذي كان جبارًا سفاكًا للدماء [أحصي من قتله صبرًا أو مات في سجنه فبلغوا ثمانية عشر ألفا]، وأمر بإلقاء أبي الحسن إلى الأسد، ونترك لأديب الإسلام مصطفى صادق الرافعي [ت: ١٣٥٥] التعليق على هذا الموقف:

«وورود النور على هذا القلب المؤمن يكشف له عن قرب الحق سبحانه وتعالى، فهو ليس بين يدي الأسد ولكنه هو والأسد بين يدي الله، وكان مندمجا في يقين هذه الآية:

﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨].

ورأى الأسد رجلاً هو خوف الله فخاف منه، ونسي الشيخ نفسه، فكأنما رآه الأسد ميتًا ولم يجد فيه (أنا) التي يأكلها، ولو أن خطرة من هم الدنيا خطرت على قلبه في تلك الساعة أو اختلجت في نفسه خالجة من الشك، لفاحت رائحة لحمه في خياشيم الأسد فتمزق في أنيابه ومخالبه»[١].

(١) وحي القلم ٣/ ٤٠، ٤١ مصطفى صادق الرافعي ط مكتبة الإيمان.

ولما سُئل بعدها: أين كان قلبك حين شمك السبع؟! قال: «كنتُ أفكر في سؤر السباع ولعابها»[1].!!

(١) حلية الأولياء ١٠/ ٣٢٤.

الحبس الانفرادي وبدائع صنع الله

«في أحد أيام هذه الفترة العصيبة نعق ناعق البوم بأن تفتح الزنازين ويصطف المعتقلون وقوفًا بداخلها لأن القائد - قائد السجن الحربي - سيمر، وفتحت الزنازين وامتثلنا للأمر، وأخذ حمزة البسيوني ومعه كلبه الذي قد يبلغ ارتفاعه قامة الرجل والذي يعتبره حمزة البسيوني أشرس وسائل التعذيب حين يطلقه على معتقل لينهش لحمه، وهو يكاد لضخامته يكون في قوة الأسد وبطشه، وفي حالتنا هذه بلغ الفجور بهذا الرجل حدًّا لا يعبر عنه إلا بأنه تحدٍّ مباشر لذات الله سبحانه وتعالى؛ ذلك بأنه لم يكتف بحبسنا حبسًا انفراديًا بغير جرم ولا مبرر؛ بل إنه اختار أضعفنا جسمًا وأكبرنا سنًّا وأقربنا إلى الشيخوخة، وأمر أن يوضع معه في الزنزانة كلبه المتوحش؛ وكان هذا الأخ هو الدكتور مصطفى عبد الله.

وكان معنى هذا الأمر الفاجر أن لا يصبح الصباح على الدكتور مصطفى إلا وقد فتك به، ومُزِّق إربًا إربًا.. وما كنا نملك له ولا لأنفسنا شيئًا، وقضينا الليلة الأولى ونحن أقرب ما نكون من الله حيث كان التجرد كاملاً، ولم أكن في تلك الليلة مشغولاً بنفسي، وإنما كنت مشغولاً بالدكتور مصطفى ذلك الشيخ الضعيف الذي حكم عليه بأن يعيش مع الكلب الكاسر في زنزانة، وكان قلبي يهلع كلما تذكرت في أثناء تلك الليلة كيف أتلقى في الصباح حين يفتح الحارس الزنزانة ليلقي إليَّ بلقيمات الإفطار

نبأ وفاة الـدكتور مصـطفى ممزقًا كـل ممـزق ... وأصـبح الصـباح، وفـتح الحارس باب زنزانتي فابتدرتـه سـائلاً عمـا إذا كـان فـتح زنزانـة الـدكتور مصطفى فأجابني بالإيجـاب؛ وفهمـت منـه أنـه مـا زال علـى قيـد الحيـاة، فتعجبت وقلت: لعل الكلب لا زال شبعان، ولكنه بعد انقضاء يوم وليلـة لا بد أنه سيجوع، وإذا جاء كلب كهذا دون أن يُقَـدَّم لـه طعـام فلـن يجـد غذاء له إلا لحم الإنسان الوحيد المحبوس معه.

وقضينا الليلـة الثانيـة في الحـبس الانفـرادي، وفي الصـباح فـتح بـاب الزنزانة وجاء الحارس، وهممت أن أسـأله عـن الـدكتور مصـطفى ولكنـه بادرني بقوله: ألا تعرف ما حدث للدكتور مصطفى؟! قال: لقد كنا جميعًـا نظن أن يصرعه الكلب وينهش لحمه وعظمه؛ ولذا كان همي طـول الليـل أن أنظر إليه من ثقب الباب بين لحظة وأخرى، قلت: فماذا رأيت؟

قال الحارس:

لقد رأيت عجبًا لعلك لا تعلم أن الباشـا (قائـد السـجن الحربـي هكذا كانوا يلقبونه) كان قد أمر بأن لا نقدم طعامًا للكلب طوال الأسبوع فلما أدخلت للدكتور طعام العشاء أمس ثم نظـرت مـن ثقـب البـاب فرأيت الكلب جاثيًا أمام الباب ووجهه نحو الباب، لا يتحرك كأنـه يحـرس الزنزانة من داخلها ورأيت الدكتور يقدم الطعـام للكلـب والكلـب لا يقربه، والدكتور يكلم الكلب كأنه إنسان، ويعزم عليـه أن يأكـل والكلـب يرفض ويأكل الدكتور ويقدم للكلب بقية الطعام فيأكله الكلب ويقـدم له الماء فلا يمد فمه في الجردل، وينتظر حتى يتوضأ الدكتور فيلحس الكلب

الماء الذي وقع في أثناء الوضوء على الأرض، ويمضي الدكتور يصلي والكلب جاثم أمام الباب يحرسه والدكتور حين يغلبه النوم فيضع جنبه أنظر فأرى الكلب في حالة تحفز نحو الباب، كالحارس الذي يخشى أن يقتحم العدو الباب على صاحبه وهو نائم وكنت أرى الدكتور في بعض الأوقات يكلم الكلب كأنه إنسان، ويضع يده على ظهره فينيخ الكلب ويبسط أقدامه بجانب الدكتور كأنه ولده الصغير!!» .

رحم الله هذه الدرر، وأسكنها برضوانه في جنات ونهر، جزاء ما رضيت قلوبهم وشمخ يقينهم، ولو أُذن لقلب الواحد منهم أن يتكلم لنطق:

كن أيها السجن كيف شئت فقد وطنت للسجن نفس معترف

لو كان سكناي فيه منقصة لم يكن الدُّر ساكن الصدف

٣- الرضا:

هو ارتفاع الجزع في أي حكم كان، واستقبال الأحكام بالفرح، وسكون القلب إلى قديم اختيار الله للعبد لأنه اختار له الأفضل.

ولذا لما سئل **يحيى بن معاذ** [ت: ٢٥٨] متى يبلغ العبد إلى مقام الرضا؟ قال:

«إذا أقام نفسه على أربعة أصول فيما يعامل به ربه: إن أعطيتني

قبلت، وإن منعتني رضيت، وإن تركتني عبدت، وإن دعوتني أجبت»[1].

وحامل لواء الرضا مستريحٌ مطمئن القلب، ينشد مسرورا مع محمد مصطفى حمام:

علمتني الحياة أن أتلقى	كل ألوانها رضا وقبولا
ورأيت الرضا يخفِّف أثقا	لي ويُلقي على المآسي سُدولا
والذي أُلهم الرضا لا تراه	أبد الدهر حاسدا أو عذولا
أنا راض بكل ما كتب الله	ومُزجٍ إليه حمدا جزيلا

ما علاقة الرضا باليقين؟

العلاقة جدُّ وثيقة؛ إذ كيف لا يرضى بمقدور الله من أيقن أن (الرحمن) أرحم بعباده من الأم بولدها، وكيف لا يرضى من أيقن أن الله سبحانه (العليم) يعلم ما يصلح عبده وما يضره والعبد جاهل لا يرى إلا تحت قدميه، وكيف لا يرضى من أيقن أنه سبحانه (اللطيف) يبتلي عباده بالمصائب ليطهرهم من خطايا تدخل النار وذنوب جزاؤها جهنم، وكيف لا يرضى من أيقن أنه سبحانه (الودود) يتودد إلى عباده بنعمه اللامحدودة ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، ولاحظ أنه قال نعمة الله ولم يقل نعم الله لأن كل نعمة محشوة بنعم لا تُعدُّ ولا تُحصى، بل حتى المحنة حشوها نعم كثيرة.

(١) تهذيب مدارج السالكين ص ٥٩٨ ، ٥٩٩.

العبـد ذو ضـجر والـرب ذو قـدر والـدهر ذو دول والـرزق مقسـوم
والخير أجمع في ما اختـار خالقنـا وفي اختيـار سـواه اللـوم والشـوم

لذا ما كان **سهل التستري** [ت: ٢٨٣] مبالغًا حين قال: «حـظ العبيـد من اليقين على قدر حظهم مـن الرضـا، وحظهـم مـن الرضـا علـى قـدر عيشهم مع الله عز وجل»(١).

ولذا أيضًا عرَّف **سفيان الثوري** [ت: ١٦١] الـيقين بأنـه الرضـا حـين قال: «اليقين أن لا تتهم مولاك في كل ما أصابك»(٢).

وهـو مـا حكـاه **عبـد الله بـن مسـعود** ﷺ [ت: ٣٣] في تجربـة عـاش تفاصيلها بنفسه وشـاهدها تتكـرَّر أمـام عينيـه، فـأبى إلا أن يقصـها علينـا لننتفع بها كما انتفع ونوقن:

«إن العبد ليُهِم بالأمر في التجارة، والإمارة حتى ييسر لـه، فينظـر الله إليه فيقول للملائكة: اصرفوه عنه، فإن يسَّرته له أدخلته النار، فيصرفه الله عنه، فظل يتطير بقوله: سبَّني فلان، وأهانني فلان، وما هو إلا فضل الله عز وجل»(٣)

وهكذا فهم سلفنا الأمر فتأدبوا مع الله وحسنت أخلاقهم مع أقـداره، وأدركوا حكمته البالغة في كل ما يصنع، فامتلأت قلوبهم ببرد الرضا وثلج

(١) إحياء علوم الدين ٤/ ٣٦٦. أبو حامد الغزالي. ط دار الكتب العربية.
(٢) الحلية ٧/ ٩.
(٣) جامع العلوم والحكم ص ٢٢٨.

اليقين، واستوى عندهم السلب والعطاء، ومن أمثلة ذلك أنه لما قيل **لأبي علي ابن الكاتب**: إلى أي الجانبين أنت أميل .. إلى الفقر أو إلى الغنى؟!

فقال: إلى أعلاهما رتبة وأسناهما قدرًا، ثم أنشأ يقول:

ولست بنظّار إلى جانب الغنى إذا كانت العلياء في جانب الفقر
وإني لصبّار على ما ينوبني وحسبك أن الله أثنى على الصبر [1]

هو أدب ورثوه وتعلموه من سيد المتأدبين مع ربه ﷺ الذي علمنا من دعائه كلما قام للصلاة أن يقول: «**لبيك وسعديك، والخير كله في يديك، والشر ليس إليك**»[2].

(١) حلية الأولياء ١٠/ ٣٦٠.

(٢) صحيح: رواه مسلم في صحيحه ١/ ٥٣٤ قال الإمام النووي: «وأما قوله: «والشر ليس إليك»؛ فمما يجب تأويله لأن مذهب أهل الحق أن كل المحدثات فعل الله تعالى وخلقه سواء خيرها وشرها، وحينئذٍ يجب تأويله وفيه خمسة أقوال أحدها: معناه لا يتقرب به إليك، والثاني: معناه لا يضاف إليك على انفراده؛ لا يقال يا خالق القردة والخنازير، ويا رب الشر ونحو هذا، وإن كان خالق كل شيء ورب كل شيء وحينئذ يدخل الشر في العموم، والثالث: معناه والشر لا يصعد إليك، إنما يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح، والرابع: معناه والشر ليس شرًّا بالنسبة إليك فإنك خلقته بحكمة بالغة، وإنما هو شر بالنسبة إلى المخلوقين، والخامس: أنه كقولك فلان إلى بني فلان إذا كان عداده فيهم أو وصفه إليهم» شرح النووي على مسلم بتصرف ٦/ ٥٩.

شهادات الصالحين

قد تواترت شهادات الصالحين وأقوالهم في مكانة الرضا وفضله[1]، كلهم له يشهدون وإليه يدعون، فالرضا:

* هو هداية القلب في لغة فقيه الكوفة علقمة [ت: ٦٢] الذي فسر قول الله تعالى ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن: ١١] بقوله:

«هي المصيبة تصيب الرجل فيعلم أنها من عند الله فيسلم لها ويرضى»[2].

---

(١) أحصى الإمام ابن القيم في (مدارج السالكين) اثنتين وستين فائدة من فوائد الرضا منها:

* تمام العبودية في جريان ما تكره من الحكام، ولو لم يجر على العبد إلا ما يحب لكان أبعد ما يكون عن عبودية ربه.
* الرضا يفتح باب سلامة القلب، ولا ينجو من عذاب الله إلا من أتى الله بقلب سليم.
* السخط باب الهم والغم والحزن وشتات القلب والرضا يخلصه من ذلك كله.
* الرضا يفرغ القلب لله والسخط يفرغ القلب من الله.
* الرضا يثمر الشكر والسخط يثمر ضده وهو كفر النعم.
* إنما يظفر الشيطان بالإنسان غالبًا عند السخط فهناك يصطاده بعكس الرضا.
* الرضا عن الله في جميع الحالات يثمر للعبد رضا الله عنه في جميع الأحوال، فإن الجزاء من جنس العمل.
* رضا الله عن العبد أكبر من الجنة وما فيها ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢].
* إذا رضي العبد به وعنه في جميع الحالات: لم يتخير عليه المسائل وجعل ذكره في محل سؤاله، فهذا يعطي أفضل ما يُعطاه سائل **(من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين)**.
* أعمال الجوارح تضاعف إلى حد معلوم محسوب، وأما أعمال القلوب ومنها الرضا: فلا ينتهي تضعيفها.

(٢) الرضا عن الله ص ٤٤. أبو بكر بن أبي الدنيا. ط مكتبة القرآن.

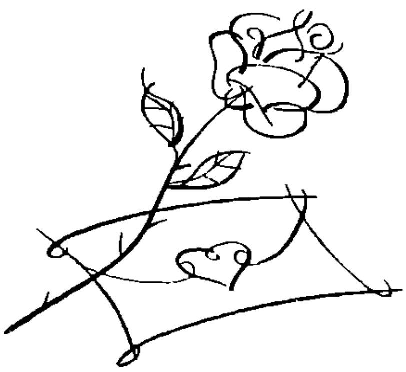
* وهو جهاد القلوب في لغة ابن قيم الجوزية [ت: ٧٥١] الذي قال: «الرضا من أعمال القلوب نظير الجهاد من أعمال الجوارح، فإن كل واحد منهما ذروة سنام الإيمان»(١).

* وهو غاية حبك لله في لغة شيخ الإسلام المجاور بحرم الله الفضيل بن عياض [ت: ١٨٧] الذي سئل يومًا: يا أبا علي .. متى يبلغ الرجل غايته في حب الله تعالى، فقال:

«إذا كان عطاؤه ومنعه إياك عندك سواء، فقد بلغت الغاية من حبه»(٢).

* وهو ابتلاء إبراهيم في تفسير الحسن البصري لقوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٢٤] قال رحمه الله:

«ابتلاه بالكواكب فرضي عنه، وابتلاه بذبح ابنه فرضي عنه، وابتلاه بالهجرة فرضي عنه، وابتلاه بالنار فرضي عنه، وابتلاه بالختان»(٣).



(١) مدارج السالكين ٢/ ٢١٤.
(٢) حلية الأولياء ٨/ ١١٣.
(٣) الرضا عن الله ص ١١٠، ١١١.

الرضا عن طريق دعاء!!

فإن لم نملك اليقين الكافي لبلوغ الرضا، فما أحلى هذا الدعاء الذي علمنا إياه رسولنا الكريم لنسلك طريق الرضا، وننهل به من نهره العذب حتى نرتوي ونهتدي.

عن **عبد الله بن يزيد الخطمي الأنصاري** ﷺ [ت: ٧٠] عن رسول الله ﷺ أنه كان يقول في دعائه:

«اللهم ارزقني حبك، وحب من ينفعني حبه عندك، اللهم ما رزقتني مما أحب فاجعله قوة لي فيما تحب، اللهم وما زويت عني مما أحب فاجعله فراغًا لي فيما تحب»(١).

قال في تحفة الأحوذي:

«قوله: «**اللهم ارزقني حبك**» أي لأنه لا سعادة للقلب ولا لذة ولا نعيم ولا صلاح إلا بإن يكون الله أحب إليه مما سواه، «**اللهم ما رزقتني مما أحب**» أي الذي أعطيتني من الأشياء التي أحبها من صحة البدن وقوته وأمتعة الدنيا من المال والجاه والأولاد والفراغ، «**فاجعله قوة لي**» أي عدة لي، «**فيما تحب**» أي بأن أصرفه فيما تحبه وترضاه من الطاعة والعبادة.

«**اللهم وما زويت**»: من الزوي بمعنى القبض والجمع، أي وما قبضته

(١) قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب، وأبو جعفر الخطمي اسمه عمير بن يزيد بن خماشة. قال الشيخ الألباني: ضعيف.

ونحيته عني أي بأن منعتني ولم تعطني مما أحب أي مما أشتهيه من المال والجاه والأولاد وأمثال ذلك، «**فاجعله فراغًا لي**» أي سبب فراغ خاطري فيما تحب أي من الذكر والفكر والطاعة والعبادة.

قال القاضي:

«يعني ما صرفت عني من محابي فنحِّه عن قلبي، واجعله سببًا لفراغي لطاعتك، ولا تشغل به قلبي فيشغل عن عبادتك، وقال **الطيبي**: أي اجعل ما نحَّيته عني من محابي عونًا لي على شغلي بمحابك، وذلك أن الفراغ خلاف الشغل، فإذا زوى عنه الدنيا ليتفرغ بمحاب ربه كان ذلك الفراغ عونًا له على الاشتغال بطاعة الله»(١).

إنه دواء على هيئة دعاء، فإلى كل متطلع إلى ما في يد غيره، ودائم الشكوى من أحواله، وكثير التأفف من سوء حظه وتعرض الأقدار له بالسوء، إلى هذا المعذَّب بيده لا بيد عدوه، والجاني الذي يرتدي ثوب الضحية، نقول له: هاك ما دعا به حبيبك من قبل، أقبل على هذا الدعاء المضمَّخ بعبق الكرامة النبوية، وواظب عليه، وردِّده صباح مساء كمن يتناول سر سعادته وأمل نجاته كل يوم، لترث الرضا عن الله في جميع أحوالك، وتملأ القلب سرورًا وإن ظنك الناس محرومًا.

(١) تحفة الأحوذي ٩/ ٣٢٥، ٣٢٦ بتصرف يسير.

منارات في طريق الرضا

* قال عبد الله بن مسعود ﷺ [ت: ٣٢]:

«لأن ألحس جمرة أحرقت ما أحرقت، وأبقت ما أبقت؛ أحب إليَّ من أن أقول لشيء كان: ليته لم يكن، أو لشيء لم يكن: ليته كان»(١).

* وقال عمر بن عبد العزيز [ت: ١٠١]: لقد تركتني هؤلاء الدعوات وما لي شيء في الأمور كلها أرب إلا في مواقع قدر الله، فكان كثيرًا ما يدعو:

«اللهم رضِّني بقضائك، وبارك لي في قدرك، حتى لا أحب تعجيل شيء أخَّرته، ولا تأخير شيء عجَّلته»(٢).

* وقال أبو عثمان الحيري [ت: ٢٩٨]: «منذ أربعين سنة ما أقامني الله تعالى في حالة فكرهتها، ولا نقلني إلى غيرها فسخطتها»(٣).

إذا ارتحل الكرام إليك يومًا ... ليلتمسوك حالاً بعد حال
فإن رحالنا حطَّت لترضى ... بحلمك عن رضاء وامتثال
أنخنا في فنائك يا إلهي ... إليك مُعرَّضين بلا اعتلال
فسُسْنا كيف شئت ولا تكلنا ... إلى تدبيرنا يا ذا المعالي

(١) إحياء علوم الدين ٤/ ٢٦٥.
(٢) مدارج السالكين ٥/ ٢٢٥.
(٣) البداية والنهاية ١١/ ١٢٢

٤- الخوف:

وما سأعرض له هنا هو ما يرتبط باليقين ارتباطًا وثيقًا ألا وهو الخوف من النار، ولكن أولاً وقبل كل شيء قد تسألني وتقول: ما علاقة الخوف باليقين؟! يجيبك عن هذا أستاذ يقين **كالحارث المحاسبي** [ت: ٢٤٣] فيقول:

«ولا يكون الخوف إلا بعد اليقين، وهل رأيت خائفًا لما لم يستيقنه؟!»(١). وبكلمات أخرى يقول ذو النون [ت: ٢٤٥]:

«إذا صح اليقين في القلب صَحَّ الخوف فيه»(٢).

بل يرى أبو **سليمان الداراني** [ت: ٢٠٥] أنَّ كل مدَّعٍ لليقين كاذب إلا إذا اقترن يقينه بالخوف. قال رحمه الله:

«لكل شيء صدق، وصدق اليقين: الخوف من الله»(٣)

---

(١) رسالة المسترشدين ص ١٧٦. الحارث المحاسبي. ط دار السلام.

(٢) طبقات الصوفية ص ٢١. (٣) السابق ص ٨٢.

هلكى ولا مغيث

قال عبد الله بن عباس ﷺ [ت: ٦٨]: ﴿وَنَادَوْا يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف: ٧٧].

قال: «يمكث ألف سنة ثم يجيبهم: ﴿إِنَّكُم مَّـٰكِثُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧]»[1].

أخي الحبيب .. هل تحتمل مجاورة مالك؟! ومالك هو المسلط عليك من قبل المالك، مالك... إن زفر التهبت النار حريقًا لزفيره، وتوقدت مستعرة انصياعًا لوعيده، وكيف يرضى مالك على من غضب عليهم ربه، وكيف يرضى وقد فطره الله على شدة الغضب على المذنبين، وكيف يرضى وهو يتعبد الله بتوصيل العذاب إلى العاصين، مساكين أهل النار... استغاثوا بمن لا يرحمهم ولا يرثى لحالهم، ويلك أيها المستغيث بمالك ... إن مالكًا إذا اشتدت سورة غضبة أحرق، وإذا أراد أن يُرضي ربه انتقم ممن عصى ربه.

(١) صفة النار فقرة رقم: ٨٥ الحافظ ابن أبي الدنيا . ط دار ابن حزم.

جولات ناريـــة

قال رسول الله ﷺ: «يخرج عنق من النار يوم القيامة لها عينان تـبصران، وأذنان تسمعان، ولسان ينطق؛ يقول: إني وُكِّلت بثلاثة: بكل جبار عنيد، وبكل من دعا مع الله إلها آخر، وبالمصوِّرين»[1].

أخـي ..

> أحقيقة هذا أم خيال؟! أوهم أم واقـع؟! أخـي .. هل تصدق رسول الله ﷺ؟!

أقصد هل بلغ يقينك مقامًا يجعل هذا المشهد مـاثلاً أمـام عينيـك، أي رعب يبعثه سماع هذا الحديث في قلوبنا فكيف بنـا إذا عشـناه واقعًـا يـوم القيامة، ونحن نرى هذه الأصناف الثلاثة تُلـتقط التقـاط الحـب إذا التقطـه الطير، لكن الطير هنا ليس سوى نار تبصر وتسمع وتتكلم وتحرق!! وأهل النار يرون هذا بأم أعينهم ولا يدري أحد منهم علـى مـن سـيأتي الـدور، فإذا أتى الدور على أحدهم فالتهمته النار تحول داخلـها إلى خلـق عجيـب وكائن غريب بما يضاعف عذابه ويزيد شقاءه.

قال رسول الله ﷺ:«ضرس الكافر أو نـاب الكـافر مثـل أحـد، وغلـظ جلده مسيرة ثلاث»[2]

(١) صحيح: رواه أحمد والترمذي عن أبي هريرة ﷺ كما في ص ج ص رقم: ٨٥٠١.
(٢) صحيح: رواه مسلم عن أبي هريرة ﷺ كما في صحيح مسلم رقم: ٥٠٩٠.

قال الإمام النووي [ت: ٦٧٦]:

«هذا كله لكونه أبلغ في إيلامه، وكل هذا مقدور لله تعالى، يجب الإيمان به لإخبار الصادق به»[1].

ويتغير في أهل النار كل شيء حتى الأنفاس كما قال رسول الله ﷺ:

«لو كان في هذا المسجد مائة ألف أو يزيدون، وفيه رجل من أهل النار فتنفس فأصابهم نَفَسُهُ لاحترق المسجد ومن فيه»[2].

ولا عجب في هذا إذن أن ينبعث هذا النَفس من جوف إنسان ثيابه النار وطعامه الزقوم وشرابه الحميم، نعم .. هذه أنفاس مَن ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ۝ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ﴾ [الحج: ١٩، ٢٠].

بل وتتغير حتى طريقة المشي فيكون المشي على الوجوه بدل المشي على الأقدام، مما جعل الصحابة أنفسهم يتعجبون ويسألون، فعن قتادة: حدثنا أنس بن مالك رضي الله عنه أن رجلاً قال: يا نبي الله !! كيف يُحشر الكافر على وجهه يوم القيامة؟ قال: **«أليس الذي أمشاه على الرجلين في الدنيا قادرًا على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة»**[3].

قال قتادة: بلى وعزة ربنا.

والحكمة من هذا بيَّنها ابن حجر [ت: ٨٢٢] فقال:

(١) صحيح: رواه مسلم بشرح النووي ١٧/ ١٨٦.
(٢) صحيح: أورده الألباني في الصحيحة رقم: ٢٥٠٩.
(٣) صحيح: رواه البخاري حديث رقم: ٤٤٨٢ ومسلم حديث رقم: ٢٨٠٦.

«والحكمة في حشر الكافر على وجهه أنه عوقب على عدم السجود لله في الدنيا بأن يسحب على وجهه في يوم القيامة ؛ إظهارًا لهوانه بحيث صار وجهه مكان يده ورجله في التوقي عن المؤذيات»(١).

(١) فتح الباري ١١/ ٣٨٢، ٣٨٣.

قد أعذر من أنذر

وقد سبق وأن نقل لنا رسول الله ﷺ ما رآه في النار لنرتدع، ولأنه الوحيد الذي رأى النار بعينه وعاينها بكل حواسه فقد كان الأقدر على وصف ما رأى، وقد بعثه الله في رحلة خاصة لهذا المقصد ليصنعه على عينه ويطهر بها قلبه، فكانت رحلة الإسراء والمعراج، وفيها قال رسول الله ﷺ:

«رأيت ليلة أسري بي رجالاً تقرض شفاهم بمقاريض من نار، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ فقال: الخطباء من أمتك، يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون»[1].

وفي هؤلاء قال ابن القيم [ت: ٧٥١]:

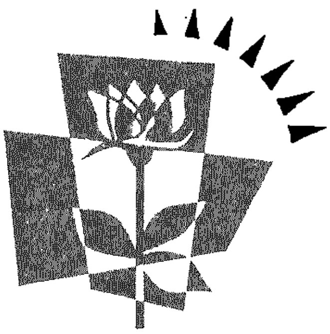
«علماء السوء جلسوا على باب الجنة يدعون إليها الناس بأقوالهم، ويدعون إلى النار بأفعالهم، فكلما قالت أقوالهم للناس: اعملوا، قالت أفعالهم للناس: لا تسمعوا منهم، فلو كان ما دعوا إليه حقًّا كانوا أول المستجيبين له، فهم في الصورة أدِلاء، وفي الحقيقة قطاع طرق»[2].

بل رأى النبي ﷺ منظرًا آخر في نفس الرحلة – وما أكثر ما رأى

(١) صحيح: رواه أحمد عن أنس بن مالك ﷺ كما في السلسلة الصحيحة رقم: ٢٩١.
(٢) الفوائد ص ٦١. ابن قيم الجوزية . ط دار الكتب العلمية.

فيها – فقال رسول الله ﷺ:

«لما عُرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم»[1].



(١) صحيح: رواه أبو داود عن أنس بن مالك ؓ كما في صحيح أبي داود رقم: ٤٠٨٢.

الفصل الخامس

طريق الوصول إلى اليقين

كيف تصل إلى اليقين؟ فإن الطريق طويلة لكنها مع الشوق تهون والزاد فيها هو العزم والجد والاستغاثة والدعاء والخلوة والتدبر.

وفي نهاية الطريق ينعم القلب في جنات وارفة وأشجار يانعة وواحات غناء.

كيف تصل إلى اليقين؟!

قال سهل بن عبد الله [ت: ٢٨٣]: «اليقين نار، والإقرار باللسان فتيله، والعمل زيته»[١].

أخي..

بدون زيت لا تضيء شعلة، وبدون شعلة لا يضيء طريق، وحينها يحل الظلام على القلب، فيضل في دروب السواد الحالك، ويسير في الطريق الخطأ، ويمضي بعيدًا عن طريق الجنة، بل وناحية سقر، إلا إذا قمت بوضع زيت العمل في مصباح القلب لتضمن استمرار الشعلة وتوقد الحماسة.

كيف الوصول إلى سعاد ودونها قُلل الجبال ودونهن حتوف
والرِّجل حافية ومالي مركب والكفُّ صفر والطريق مخوف

١- التفكر:

أخذ التفكر في الآخرة وقتًا طويلاً عند أنقياء القلوب وأصفياء النفوس لعلمهم أنه يوصل بصورة مباشرة وبطريق مختصرة إلى كنز اليقين المدفون تحت رمال الغفلة؛ لذا قدم بعضهم التفكر على قيام الليل، فعن يوسف بن أسباط [ت: ١٩٩] قال لي سفيان [ت: ١٦١] بعد العشاء: ناولني المطهرة - الإناء الذي يتوضأ به - فناولته، فأخذها بيمينه ووضع

(١) الحلية ١٠/٢٠٣.

يساره على يده، فبقي مفكرًا، ونمت ثم قمت وقت الفجر، فإذا المطهرة في يده كما هي، فقلت: هذا الفجر قد طلع، فقال: «لم أزل منذ ناولتني المطهرة أتفكر في الساعة!!»(1).

وهذا التأمل يتناول الرحلة الأخروية بتفاصيلها وجميع مراحلها؛ ولذا قال **عبد الله بن المبارك** [ت: ١٨١] يومًا **لسهل بن عدي** وقد رآه ساكتًا متفكرًا: أين بلغت؟ قال: الصراط!

ومما ساعد سلفنا في هذا التفكر، وأورثهم به اليقين: النظر إلى أمور حياتية طبيعية، وربط ذلك بالآخرة، ومن هذا على سبيل المثال: التفكر في أمر النار، فقد:

* كان **عبد الله بن مسعود** ﷺ [ت: ٣٢] يمر بالحدادين وقد أخرجوا حديدًا من النار، فيقف ينظر إليه ويبكي.

* **وعمر بن الخطاب** ﷺ [ت: ٢٣] ربما توقد له النار ثم يدني يده منها ويقول: يا ابن الخطاب هل لك على هذا صبر؟!

* وكان **الأحنف بن قيس** [ت: ٦٢] يجيء إلى المصباح فيضع إصبعه فيه ثم يقول: حس ويقول: يا أحنف ما حملك على ما صنعت يوم كذا؟! ما حملك على ما صنعت يوم كذا؟!

* وأويس **القرني** [ت: ٣٧] يقف على الحدادين فينظر كيف ينفخون الكير ويسمعون صوت النار فيصرخ ثم يسقط.

(١) صفة الصفوة ٣/ ١٤٨، ١٤٩

* وعطاء السلمي [ت: ٢٤٥] يلمح امرأة تسجر تنورها فيُغشى عليه.

ومما يساعد على التفكر ويدفع إليه: ربط الواقع الملموس المحيط بالإنسان بالغيب المجهول، وهو قول رابعة:

«ما رأيتُ ثلجا قط إلا ذكرتُ تطاير الصحف، ولا رأيتُ جرادا قطّ إلا ذكرتُ الحشر، ولا سمعتُ أذانا قطّ إلا ذكرتُ منادي القيامة»[1]

٢- تدبر القرآن:

تدلُّ مادة «دَبَرَ» على آخرِ الشَّيءِ، ومنه دُبُرُ الشيء، أي آخره، كأدبار الصلوات، والتَّدبُّرُ: النَّظرُ في أدبارِ الشَّيء، والتفكير في عاقبتِه، وجاءَ على صيغةِ التَّفعُّلِ، ليدلَّ على تكلُّفِ الفعلِ، وحصولِه بعد جُهْدٍ، وهو هنا بمعنى الغوص في معاني الآيات حتى الوصول إلى مرادها ومقصودها وما تريده منا وما تتطلبه، وبدون هذا يتحول القرآن إلى كتاب مطالعة أو نص أدبي كسائر النصوص البشرية.

وتدبر القرآن طريق سهل موصل إلى اليقين أرشدك إليه شامة الموقنين رسول الله ﷺ، فقال: **«من سرَّه أن ينظر إلى يوم القيامة، كأنه رأي عين فليقرأ: إذا الشمس كورت، وإذا السماء انفطرت، وإذا السماء انشقت»**[2]

واسمعوا كيف يكون حال القلب الموقن بآيات ربه المتدبر فيها، وذلك

(١) الزهد الكبير للبيهقي ص ٢١٢ - مؤسسة الكتب الثقافية.
(٢)صحيح: رواه أحمد والترمذي عن ابن عمر ﷺ كما في ص ج ص رقم: ٦٢٩٣.

في قصة جبير بن مطعم رضي الله عنه [ت: ٥٩] التي رواها البخاري، فعن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه قال: سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب ﴿وَالطُّورِ﴾ فلما بلغ هذه الآية ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾[الطور: ٣٥- ٣٧]. كاد قلبي يطير.

وهذه وسائل مساعدة تعينك على تدبر القرآن، بل تضمن لك ذروته إذا سرت عليها ونفذتها:

* معرفة التفسير:

وكيف يتدبر الإنسان مواعظ ليس يفهمها؟! وكيف ينفذ أوامر لا يعرف معناها؟! وكيف ينتهي عن نواهٍ يجهل مغزاها؟! وهل القرآن إلا مواعظ وأوامر ونواهٍ؟! وهو ما أثار ابن جرير الطبري [ت: ١١٣] فأعرب قائلاً:

«إني لأعجب ممن قرأ القرآن ولم يعلم تأويله كيف يلتذ بقراءته؟!»[(١)].

* التأني:

ومما يعين على تدبر القرآن.. التأني في تلاوته وعدم الاستعجال. سئل ابن عباس رضي الله عنه [ت: ٦٨] عن جهر النبي ﷺ بالقراءة بالليل فقال: «كان يقرأ في حجرته قراءة لو أراد حافظ أن يحفظها فعل»[(٢)].

(١) معجم الأدباء ١٨/ ٦٣.
(٢) مختصر قيام الليل للمروزي ص ١٣٣.

ولما سئل أنس بن مالك ﷺ [ت: ٩٣] عن قراءة النبي ﷺ قال: «كان يمد صوته مدًا»(١).

ولذا مما ورد عن الفضيل بن عياض [ت: ١٨٧] ما يلي: (كانت قراءته حزينة شهية بطيئة مسترسلة كأنه يخاطب إنسانًا، وكان إذا مر بآية فيها ذكر الجنة يردد فيها ويسأل)(٢).

* التغني بالقرآن:

ومما يعين على تدبر القرآن.. التغني وتحسين الصوت به. قال رسول الله ﷺ: «ليس منا من لم يتغنَّ بالقرآن»(٣).

وقال ﷺ: «أحسن الناس قراءة الذي إذا قرأ رأيت أنه يخشى الله»(٤).

قال ابن كثير [ت: ٧٧٤]: «المطلوب شرعًا إنما هو تحسين الصوت؛ الباعث على تدبر القرآن وتفهمه، والخشوع والخضوع، والانقياد والطاعة»(٥).

ويدلي بدلوه في بئر البركة القرآنية الإمام ابن القيم [ت: ٧٥١] لِيُخرج لنا فوائد أنفع وأنوارًا أسطع يهتدي بها الباحثون عن اليقين

(١) صحيح: رواه ابن ماجة كما في صحيح ابن ماجة رقم: ١١٢٠.
(٢) نزهة الفضلاء ٢/ ٦٦٢.
(٣) صحيح: رواه أبو داود عن سعد بن أبي وقاص ﷺ أو سعيد بن أبي سعيد ﷺ كما في صحيح أبي داود رقم: ١٣٠٥.
(٤) صحيح: رواه محمد بن نصر في كتاب الصلاة عن ابن عباس ﷺ كما في ص ج ص رقم: ١٩٤.
(٥) فضائل القرآن ص ١٢٥.

والطامحون لدخول الجنة في زمرة المقربين، فيقول نفعنا الله بما يقول:

«ولأن تزيينه وتحسين الصوت به والتطريب بقراءته أوقع في النفوس وأدعى إلى الاستماع والإصغاء إليه، ففيه تنفيذ للفظه إلى الأسماع ومعانيه إلى القلوب، وذلك عون على المقصود، وهو بمنزلة الحلاوة التي تُجعل في الدواء لتنفذه إلى موضع الداء، وبمنزلة الأفاويه والطيب الذي يجعل في الطعام لتكون الطبيعة أدعى له قبولاً، وبمنزلة الطيب والتحلي وتجمل المرأة لبعلها ليكون أدعى إلى مقاصد النكاح.

قالوا: ولا بد للنفس من طرب واشتياق إلى الغناء، فعُوِّضت عن طرب الغناء بطرب القرآن، كما عُوِّضت عن كل محرم ومكروه بما هو خير لها منه، وكما عُوِّضت عن الاستقسام بالأزلام بالاستخارة التي هي محض التوحيد والتوكل، وعن السفاح بالنكاح، وعن القمار بالمراهنة بالنصال وسباق الخيل، وعن السماع الشيطاني بالسماع الرحماني القرآني ونظائره كثيرة جدًّا»[(١)]

حَسِّن صوتي يا رب !!

ولأهمية حسن الصوت في حضور القلب سأل عتبة الغلام ربه ثلاث خصال: صوتًا حسنًا ودمعًا غزيرًا، وطعامًا من غير تكلف، فكان إذا قرأ بكى وأبكى، ودموعه جارية دهره، وكان يأوي إلى منزله فيُصيب فيه قوته ولا يدري من أين يأتيه[(٢)].

---

(١) زاد المعاد ١/ ٤٦٣.

(٢) الفتاوي لابن تيمية ٢/ ٤٩٦.

حُسن الصوت نجاة!!

وقد ذكر ابن كثير رحمه الله في البداية في أحداث عام ثلاثمائة وثلاثة وتسعين:

« وفيها خرج الركب العراقي إلى الحجاز، فاعترضهم الأصيفر أمير الأعراف، فبعثوا إليه بشابين قارئين مجيدين كانا معهم، يقال لهما **أبو الحسن الرفا وأبو عبد الله بن الزجاجي**، وكانا من أحسن الناس قراءة ليكلماه في شيء يأخذه من الحجيج ويطلق سراحهم ليدركوا الحج، فلما جلسا بين يديه قرآ جميعًا عشرًا بأصوات هائلة مطربة مطبوعة، فأدهشه ذلك وأعجبه جدًّا، وقال لهما: كيف عيشكما ببغداد؟ فقالا: بخير لا يزال الناس يكرموننا ويبعثون إلينا بالذهب والفضة والتحف، فقال لهما:

هل أطلق لكما أحد منهم بألف دينار في يوم واحد؟

فقالا: لا، ولا ألف درهم في يوم واحد.

قال: فإني أطلق لكما ألف ألف دينار في هذه اللحظة، وأطلق لكما الحجيج كله، ولولاكما لما قنعت منهم بألف ألف دينار.

فأطلق الحجيج كله بسببهما.

ولما وقف الناس بعرفات قرأ هذان الرجلان قراءة عظيمة على جبل الرحمة فضجَّ الناس بالبكاء من سائر الركوب لقراءتهما، وقالوا لأهل العراق: ما كان ينبغي لكم أن تخرجوا معكم بهذين الرجلين في سفرة واحدة، لاحتمال أن يصابا جميعًا، بل كان ينبغي أن تخرجوا بأحدهما وتدعوا الآخر، فإذا أصيب سلم الآخر.

وقد كان أمير العراق عزم على العود سريعًا إلى بغداد على طريقهم التي جاؤوا منها، وأن لا يسيروا إلى المدينة النبوية خوفًا من الأعراب، وكثرة الخفارات، فشق ذلك على الناس، فوقع هذان الرجلان القارئان على جادة الطريق التي منها يعدل إلى المدينة النبوية، وقرأ ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ [التوبة: ١٢٠]، فضجَّ الناس بالبكاء وأمالت النوق أعناقها نحوهما، فمال الناس بأجمعهم والأمير إلى المدينة فزاروا وعادوا سالمين إلى بلادهم ولله الحمد والمنة[١].

* التخلي عن موانع الفهم:

قال ابن قدامة المقدسي [ت: ٧٤٤] ناصحًا كل تالٍ للقرآن:

«وليتخلَّ التالي عن موانع الفهم، ومن ذلك، أن يكون مصرًّا على ذنب، أو متصفًا بكبر، أو مبتلى بهوى مطاع، فإن ذلك سبب ظلمة القلب وصدئه، فالقلب مثل المرآة، والرياضة للقلب بإماطة الشهوات مثل جلاء المرآة»[٢].

فكل متصف بصفة من هذه الصفات هو جانٍ في صورة مشتكٍ، ومتهم في هيئة مدَّعٍ، وسجل أعماله يدينه، وصحيفة سيئاته تفضحه، فكيف يطمع بعد هذه الجرائم في نيل مكافأة فهم كلام الله وتدبر معانيه؟!

(١) البداية والنهاية ١١/ ٣٨٣ بتصرف يسير.

(٢) مختصر منهاج القاصدين ص ٥٨، ٥٩ – ط، دار الدعوة.

وهل يفتح خزائن كتابه لمن خالف كتابه؟! وهل يكشف أسراره إلا لمن اصطفاه واختاره؟!

* تكرار بعض الآيات:

قام النبي ﷺ بآية حتى أصبح يرددها والآية ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(1) [المائدة: ١١٨].

قال الإمام النووي [ت: ٦٧٦]: «وقد دأب جماعة من السلف يتلو الواحد منهم آية واحدة يتدبرونها ويرددونها إلى الصباح»(2).

* طريقة الترقي:

إن شكوت من أنك تقرأ ولا تتدبر، وتتلو ولا تتعظ، وتمل ولا تلتذ فقد سبقك إلى هذا سالم الخواص [ت: ٢٩١] الذي قص حاله عليك في قوله:

«كنت أقرأ القرآن ولا أجد له حلاوة، فقلت لنفسي: اقرئيه كأنك سمعتيه من رسول الله ﷺ فجاءت حلاوة قليلة، فقلت لنفسي: اقرئيه كأنك سمعتيه من جبريل عليه السلام حين يخبر به النبي ﷺ، قال: فازدادت الحلاوة، ثم قلت لها: اقرئيه كأنك سمعتيه حين تُكُلِّم به. قال: فأتت الحلاوة كلها»(3).

---

(١) حسن: رواه ابن ماجة عن أبي ذر رضي الله عنه وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجة رقم: ١١١٨.
(٢) التبيان في آداب حملة القرآن ص ٧٩ شرف الدين النووي، ط دار البشير. الأردن.
(٣) الحلية ٨/ ٢٧٩.

٣- الدعاء:

قال رسول الله ﷺ: «من نزلت به فاقة فأنزلها بالناس لم تسد فاقته، ومن نزلت به فاقة فأنزلها بالله فيوشك الله له برزق عاجل أو آجل»[1].

أخي الحبيب...

طرقت جميع الأبواب تلتمس فيها اليقين لكنك لم تسلك طريق الله بعد !! الله ... الذي قذف اليقين في قلوب الصالحين من قبلك، أليس بقادر على أن يقذف اليقين في قلبك؟ الله .. الجواد الكريم .. أفيبخل عليك أن يشملك بعطفه؟! الله .. الذي يقول للشيء كن فيكون؛ ألا يستطيع أن يقول لقلبك: أيقن فيعمر يقينًا ويفيض إيمانًا وينمحي عنه الشك؟!

ما أيسر أن ندعو الله عز وجل فنقول:

اللهم إنا نسألك يقينًا لا يهتز، وإيمانًا لا يرتد، ونسألك بصيرة تجعل الغيب عندنا شهادة، ونسألك مخافة النار كأننا نراها، ونسألك شوقًا إلى الجنة يعادل شوق من عاينها .. اللهم آمين.

فإذا دعوت الله ولم تظهر في الأفق إجابة، ولم تشرق شمس اليقين على قلبك، فلا تعترض عليه، بل اعترض على نفسك بسبب تقصيرك في دعائك وعدم استكمال شروط إجابته من غفلة واستعجال وذنوب

(١) صحيح: رواه أبو داود والترمذي كما في صحيح الترغيب والترهيب رقم: ٨٣١.

واتكال، ولو أديت ما عليك لرأيت ما تمنيت، وقد قالها ابن عطاء [ت: ٧٠٩] من قبل:

«لا تطالب ربك بتأخر طلبك، ولكن طالب نفسك بتأخر أدبك».

ولأن مشربهم واحد، لذا تتشابه كلماتهم وكأنهم أبناء أم واحدة. قال شيخ الإسلام **ابن تيمية**: «ما لا يكون بالله لا يكون، وما لا يكون لله لا ينفع ولا يدوم»(١)

٤- التوهم:

ومعناه أن يكون للإنسان جلسات يراجع فيها نفسه ويعيش في أجواء الآخرة، وينعزل عن الحياة الدنيا، ليعيش التفاصيل التي سوف يشهدها عاجلاً كان أم آجلاً.

من هؤلاء المتوهمين: **الحارث المحاسبي** الذي ألف كتابًا في هذا الشأن سماه (التوهم) عرض فيه إلى حال الإنسان من الاحتضار إلى أن يصل إلى الجنة أو النار.

ومنهم **ضرار بن مرة** [ت: ١٣٢] الذي حفر قبره قبل موته بخمس عشرة سنة فكان يأتيه فيختم فيه القرآن!!(٢)

وكذلك ورد هذا عن الإمام القدوة العابد **الربيع بن خثيم** [ت: ٦٥]، فتُرى فيم كان يفكر **الربيع** و**ضرار** حين كانا يرتديان الأكفان ويتوسدان التراب؟!.

(١) مختصر الفتاوي المصرية لابن تيمية ١/ ١٧٤

(٢) صفة الصفوة ٣/ ٥٦.

يخبرك عن هذا أخوهم في المجاهدة ورفيقهم في درب التوهم إبراهيم التيمي [ت: ١١٠] فيقول:

«مثّلت نفسي في الجنة آكل من ثمارها، وأشرب من أنهارها، وأعانق أبكارها، ثم مثّلت نفسي في النار آكل من زقومها، وأشرب من صديدها، وأعالج سلاسلها وأغلالها، فقلت لنفسي: أي شيء تريدين؟ قالت: أريد أن أرد إلى الدنيا فأعمل صالحًا. قال: قلت: فأنت في الأمنية فاعملي»(١).

هي وصية الصالحين على اختلاف العصور والأزمان سبق ونصحك بها أبو الفرج ابن الجوزي [ت: ٥٩٧] فقال:

«مثّل لنفسك صرعة الموت، وما قد عزمت أن تفعل حينئذٍ وقت الأسر، فافعله وقت الإطلاق»(٢).

وهي الطريقة التي انتهجها أبو عثمان المنتجب الواعظ في دعوة نور الدين محمود بن زنكي فنقلته من الظلمات إلى النور، وأثرت فيه أيما تأثير، وجعلته يقضي على المظالم في عهده، ويغلق حانات الخمور التي انتشرت، وذلك أن المنتجب أرسل إليه قصيدة صنعها خصيصًا من أجله جاء فيها:

مثّل وقوفك أيها المغرور ... يوم القيامة والسماء تمور

إن قيل نور الدين رحت مُسلِّمًا ... فاحذر بأن تبقى ومالك نور

(١) صفة الصفوة ٣/ ٤٤.
(٢) المدهش ص ١٨٤

أنهيت عن شرب الخمور وأنت من ... كأس المظالم طافح مخمور
عطّلت كاسات المدام تعففًا ... وعليك كاسات الحرام تدور
ماذا تقول إذا نُقلت إلى البلى ... فردًا وجاءك منكرٌ ونكير
وتعلّقت فيك الخصوم وأنت في ... يوم الحساب مُسَحَّب مجرور
وتفرقت عنك الجنود وأنت في ... ضيق اللحود مُوَسَّد مقبور
ووددت أنك ما وليت ولاية ... يومًا ولا قال الأنام: أمير
وبقيت بعد العز رهن حُفيرة ... في عالم الموتى وأنت حقير
وحُشرت عريانًا حزينًا باكيًا ... قلقًا ومالك في الأنام مجير
أرضيت أن تحيا وقلبك دارس ... عافي الخراب وجسمك المعمور
أرضيت أن يحظى سواك بقربه ... أبدًا وأنت مُبعَّد مهجور
مهِّد لنفسك حجة تنجو بها ... يوم المعاد لعلك المعذور

قال راوي القصة وهو صاحب كتاب الروضتين:

«ولعل هذه الأبيات كانت من أقوى الأسباب المحركة إلى إبطال تلك المظالم، والخلاص من تلك المآثم، رضي الله عن الواعظ، والمتعظ بسببه، ووفق من رام الاقتداء به»[1].

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية ٥٥- ٥٧ شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي، ط مؤسسة الرسالة. الطبعة الأولى. ١٩٩٧.

٥- الخلوة:

قال ابن الجوزي [ت: ٥٩٧]:

«الخلوة شَرَكٌ لصيد المؤانسة، فأخفى الصيادين شخصية وأقلهم حركة؛ أكثرهم التقاطًا للصيد ما صاد هرًّا صاح»[1].

ولذا مما جاء في القرآن في فضل قيام الليل: ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾ [المزمل: ٦].

قال ابن عباس ﷺ [ت: ٦٨] شارحًا:

«وقوله أقوم قيلاً هو أجدر أن يفقه في القرآن»[2].

احبني ..

راغبي البحث عن اليقين هاكم إياه، وجوف الليل هو الفرصة السانحة لاصطياد اليقين، حيث يقل الزحام، ويهدأ الضجيج، فتسنح الفرصة لشراء اليقين بأرخص الأثمان، جزاءً وفاقًا؛ لمن أتعب جسده، وتخلى عن راحته، وآثر رضا الله على هواه، فيكافئه الله بأن يسلمه البضاعة جاهزة: يقينًا يقذفه الله في قلبه.

والخلوة وسيلة رائعة إلى اقتناص اليقين عن طريق خواطر الخير وصيد

(١) المدهش ص ٥٢٣.

(٢) حسن: رواه أبو داود وحسنه الألباني في صحيح أبي داود رقم: ١١٥٦

الأفكار الجيدة التي لا ترد في الزحام وبين الناس، كما حكى تجربته في ذلك الإمام أبو سليمان الخطابي [ت: ٣٨٨] فقال:

إذا خلوت صفا ذهني وعارضني خواطر كطراز البرق في الظُّلَم
وإن توالى صياح الناعقين على أذني عرتني منه لكنة العجم[١]

ولهذا جاءت كلمات ابن عطاء [ت: ٧٠٩] قاطعة:

«ما نفع القلب مثل عزلة يدخل بها ميدان فكرة».

ولأن اليقين منزلة عالية ومكانة سامية لا ينالها سوى أولو العزم، فلا يقوى عليه أي أحد، وبالتالي لا يسلك الطرق المؤدية إليه أي أحد، ومن هنا لم يقو على الخلوة إلا الأقوياء. قال أبو يعقوب السوسي:

«الانفراد لا يقوى عليه إلا الأقوياء من الرجال، ولأمثالنا الاجتماع أنفع، يعملون بعضهم على بعض»[٢]

لكن لماذا الأقوياء وحدهم؟!

لأن الضعيف إذا خلا بنفسه استفرد به الشيطان فأوقعه في ذنوب الخلوات، لذا لا يُنصح ضعيفٌ بخلوة بل بغشيان الناس وعدم التفرد، أما السابقون فيُستحب أن تكون لهم أوقات يخلون فيها بالحبيب يبغون فيها المزيد.

---

(١) الإمام الخطاب رائد شراح البخاري ص ٢٥. ملحق مجلة الأزهر عن عدد ذي الحجة ١٤١٣هـ.

(١) الزهد الكبير ص ١٠٨

٦- صحبة الموقنين:

إن صحبة الموقنين تُعدي ، والهم الأقوى يغيِّر الهم الأضعف ويصرعه؛ لذا يطرد يقين المؤمنين شك الضعفاء، ويملأ مكانه في القلب، ورسول الله ﷺ وصف صنفًا من الناس فقال: «**إن من الناس ناسًا مفاتيح للخير مغاليق للشر**»(١).

وهل هناك خير من اليقين يدلك الصالحون عليه؟! وهل هناك شر من الظن والشكوك يحذرونك منه؟!



وعندما يتعرض المسلم لفتنة ويبتليه الله ليمحصه، يحتاج إلى من يقف بجواره ويذكره، فإن وقع المحنة قد يذهب ببعض عقل المرء، إلا أن يقيض الله رجلاً صالحًا قوي الإيمان ثابت اليقين يعظه ويثبته بكلمات مشحونة بالتذكير بالله ولقائه وجنته وناره.

وهاك أخي سيرة الإمام أحمد بن حنبل [ت: ٢٤١]، وهو على سعة علمه وقوة إيمانه ساق الله إليه من يثبته، ولقد سيق إلى الخليفة **المأمون** [ت: ٢٢٨] مقيدًا بالأغلال، وقد توعده وعيدًا شديدًا قبل أن يصل إليه، حتى لقد قال خادم للإمام أحمد: «يعز عليَّ يا أبا عبد الله؛ أن **المأمون** قد سل سيفًا لم يسله قبل ذلك، وأنه يقسم بقرابته من رسول الله ﷺ، لئن لم تجبه إلى القول بخلق القرآن ليقتلنك

---

(١) حسن: رواه ابن ماجة عن أنس ﷺ مرفوعًا رقم: ٢٣٧، وابن أبي عاصم في كتاب السنة ١/ ١٢٧، وانظر السلسلة الصحيحة رقم: ١٣٣٢.

بذلك السيف»[1].

ولاحت رايات الموت أمام الإمام وأحس بدنو الأجل، فجاءه من يربط الله به على قلبه من حيث لا يدري ولا يحتسب، واسمعوا منه ما قال في سياق، رحلته إلى المأمون:

«صرنا إلى الرحبة منها في جوف الليل، فعرض لنا رجل، فقال: أيكم أحمد ابن حنبل؟! فقيل له: هذا، فقال للجمَّال: على رسلك.. ثم قال: يا هذا، ما عليك أن تقتل ها هنا، وتدخل الجنة، ثم قال: أستودعك الله، ومضى، فسألت عنه، فقيل لي: هذا رجل من العرب من ربيعة يعمل الصوف في البادية يقال له: جابر بن عامر يُذكر بخير»[2].

وأعرابي آخر يملأ اليقين قلبه حتى يفيض على الإمام أحمد حين يلقاه فيعاجله بجرعة يقين قائلاً:

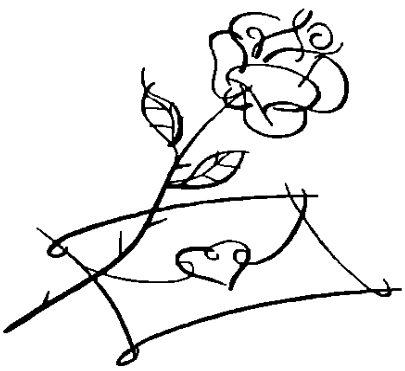
«يا هذا!! إنك وافد الناس فلا تكن شؤمًا عليهم، وإنك رأس الناس اليوم، فإياك أن تجيبهم إلى ما يدعونك إليه، فيجيبوا فتحمل أوزارهم يوم القيامة، وإن كنت تحب الله؛ فاصبر على ما أنت فيه، فإنه ما بينك وبين الجنة إلا أن تُقتل».

ولهذا جاءت وصية النبي ﷺ صارخة صارمة لا تحتمل التأويل: «**لا تصاحب إلا مؤمنًا**».

(١) البداية والنهاية ١/ ٣٣٢.
(٢) سير أعلام النبلاء ١١/ ٢٤١.

قال **المناوي** [ت: ١٠٣١] في فيض القدير:

«قوله: «**لا تصاحب إلا مؤمنًا**»، وكامل الإيمان أولى لأن الطباع سرَّاقة، ومن ثم قيل: صحبة الأخيار تورث الخير، وصحبة الأشرار تورث الشر؛ كالريح إذا مرت على النتن حملت نتنًا، وإذا مرت على الطيب حملت طيبًا، وقال **الشافعي**: ليس أحد إلا له محب ومبغض، فإذن لا بد من ذلك، فليكن المرجع إلى أهل طاعة الله، ومن ثم قيل: ولا يصحب الإنسان إلا نظيره، والإخوان ثلاثة: أخ لآخرتك فلا نزاع فيه إلا الدين، وأخ لدنياك فلا نزاع فيه إلا الخلق، وأخ لتأنس به فلا نزاع فيه إلا السلامة من شره وخبثه وفتنته، قال في الحكم: لا تصحب من لا ينهضك حاله، ولا يدلك على الله مقاله»[1].



(١) فيض القدير ٦/ ٤٠٤.

استيقظوا فأيقظوا

لما ملأ اليقين قلوب الصالحين فاض على من حولهم فانطلقوا يزرعونه في قلب كل من يروه، ولهم في ذلك طرق شتى.

* كان سالم بن عبد الله بن عمر ﷺ [ت: ١٠٦] لا يمر بقبر بليل ولا نهار إلا سلَّم عليه(١)، ليُلقي في قلوب من سمعه اليقين بأن هؤلاء الأموات أحياء .. يحيون حياة من نوع آخر إما جنة وإما نار.

* ومر إبراهيم بن أدهم [ت: ١٦١] بمقبرة فتقدم إلى قبر فوضع يده عليه، ثم قال رحمك الله يا فلان، ثم تقدم إلى آخر فقال مثل ذلك، فعل ذلك بسبعة من القبور، ثم قام قائمًا بين تلك القبور فنادى:

«يا فلان، يا فلان بأعلى صوته .. لقد متم وخلفتمونا، ونحن بكم سريعًا لاحقون، ثم بكى وغرق في فكره، ثم رجع بعد ساعة فأقبل إلينا بوجهه ودموعه تنحدر كاللؤلؤ الرطب وقال: إخوتي عليكم بالمبادرة والجد والاجتهاد سارعوا وسابقوا، فإن نعلاً فقدت أختها سريعة اللحاق بها»(٢).

---

(١) حلية الأولياء ٢/ ١٩٥.

(٢) صفة الصفوة ٤/ ١٠٣.

قل للمؤمِّل إن الموت في أثرك ... وليس يخفى عليك الأمر من نظرك
فيما مضى لك إن فكّرت معتبر ... ومن يمت كل يوم فهو من نُذُرك
تضحى غدًا سمرا للذاكرين كما ... صار الذين مضوا بالأمس من سمرك

لذلك قالها لنفسه مالك بن دينار [ت: ١٣٠]: «ويحكِ.. بادري قبل أن يأتيك الأمر»[١]. مكرِّرًا عظته هذه ستين مرة!! نعم ستين مرة، ليردد بلسانه ما يوقظ به عقله، وإذا أيقظ عقله خشع قلبه، وإذا خشع قلبه وصل إلى اليقين حتمًا.

٧- نظرة الوداع:

إن زيارة المقابر وتشييع الجنائز وتغسيل الموتى من أعظم مورِّثات اليقين في القلب؛ لأن الغرق في لذات الدنيا يضيع أثر اليقين في القلب ويأخذ من رصيد الإيمان الفطري، ولا يحمي القلب من أثر اللذات الضار إلا ذكر الموت والرحيل؛ لذا كانت وصية الرسول ﷺ لنا: «**أكثروا ذكر هاذم اللذات: الموت**»[٢].

أي قاطعها وهي كلمة مشتقة من هدم البناء، فشبه اللذات الفانية والشهوات العاجلة ثم زوالها ببناء مرتفع ينهدم تحت وقع صدمات متتالية، ثم أمر المنهمك في بناء هذا الجدار بذكر وقوع الهدم حتى لا ينشغل بالبناء وينسى ما وراءه من الدمار.

---

(١) قصر الأمل ص ١٠٥، ١٠٦ أبو بكر بن أبي الدنيا. ط دار ابن حزم.
(٢) صحيح: رواه الترمذي والنسائي عن ابن عمر ﷺ كما في ص ج ص حديث رقم: ١٢١٠.

فكلما وهن اليقين في قلبك زر قبرًا، أو احمل نعشًا، أو احضر جنـازة، أو اشهد غسل ميت، وكل ما ذكَّرك بحملك على الأعناق ورحلة الفراق فخضه على الفور، وإن جبال الشك وإن بدت ضخمة وسدت الأفق أمامك؛ فلن تثبت أمام نسمة رحيل تحملها ريح يقين إن هي أقبلت.

«نهيتكم عن زيارة القبور، فزوروها فإنها تذكركم الموت»(١).

لكن .. ما هي الذكرى التي أرادها منا رسول الله ﷺ؟ أهو الموقف الذي يمر على صاحبه كأي موقف ثم ينساه كأن لم يكن؟! أهي اليقظة التي تنقلب غفلة فور أن يغادر صاحبها المقبرة والعصيان وأنت على أعتابها؟! أم هي الذكرى التي تبقى، وتنفع بمقدار ما تبقى؟!!

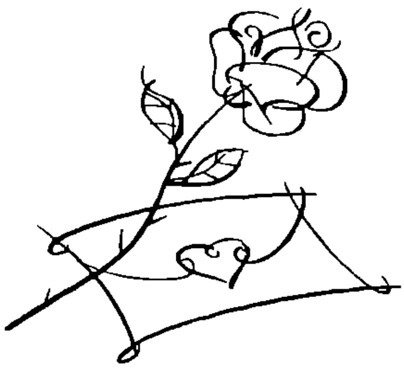
قال المناوي مبينًا أثر القبر على القلب وناصحًا لك بزيارة أسبوعية له مع إيجازه آداب الزيارة:

«ليس للقلوب سيِّما القاسية أنفع من زيارة القبور، فزيارتها وذكر الموت يردع عن المعاصي، ويلين القلب القاسي، ويذهب الفرح بالدنيا، ويهوِّن المصائب.

وزيارة القبور تبلغ في دفع رين القلب واستحكام دواعي الذنب ما لا يبلغه غيرها، فإنه وإن كان مشاهدة المحتضر تزعج أكثر لكن ذلك غير ممكن في كل وقت، وقد لا يتفق لمن أراد علاج قلبه في كل أسبوع بخلاف الزيارة.

(١) صحيح: رواه الحاكم عن أنس ﷺ كما في ص ج ص رقم: ٦٧٩٠

وللزيارة آداب منها أن يحضر قلبه، ولا يكون حظه التطوف على الأجداث فقط، فإنها حالة تشاركه فيها البهائم، بل يقصد بها وجه الله، وإصلاح فساد قلبه، ونفع الميت بما يتلوه من القرآن، ولا يمشي على قبر، ولا يقعد عليه، ويخلع نعله ويخاطبهم خطاب الحاضرين، فيقول: السلام عليكم دار قوم مؤمنين»[1].



(١) فيض القدير ٤/ ٦٧

المتابعة بعد الزيارة

ولكي تُؤتي هذه الزيارة أكلها وتحدث أثرها، فلا بد من قياس العمل بعدها لاستنهاض الهمم للبذل عند انتهائها، وتحول طاقة العلم إلى طاقة عمل، نعم .. كل منا يعلم أنه سيدركه هذا المصير، وسيموت كما مات أصحاب هذه القبور، وتشيع جنازته كما شيعت جنازة إخوانه من قبل، لكن كم منا يوقن أن هذا حاصل عن قريب؟! ويحسب أن ذلك منه غير بعيد؟!

والجواب أن أقل القليل من يوقن بهذا ويرى ذلك في عمله؛ ولذا يفسح غير الموقن لنفسه في المدة، ويمد لها في المهلة، ويقول بلسان الحال: لن أموت إلا بعد سنين أو عندما أشيب، وإن قال: قد أموت اليوم أو غدًا، فقول لا يصدقه عمل، فلا يتحرك قيد أنملة، ولا تهتز منه شعرة، ولا يتغير بمقدار ذرة، ولو رأى ألف جنازة لكان حاله قبل أن يراها كحاله بعد دفنها، بل وربما حدَّث بحديثه الدنيوي الذي كان يتحدث به والميت يدفن تحت قدميه، وإن جاءه موقف ضحك ضَحِك، وإن حضرته طرفة من لغو الحديث خاض، وكأنه في عرس لا في مأتم!!

متى تخلع ثوبك؟!

الموقن لا يرى الجسم غير ثوب يخلع عند الموت كما تخلع الحية ثوبها، فهل رأيتم أحدًا يبكي على ثوب يخلع؟! ومع ذلك يبكي أهل الجنازة على الجنازة تألما لفراق صاحبها أكثر مما يبكون على أنفسهم، ولو كانوا يعلمون علم اليقين لكان بكاؤهم على أنفسهم أشد وأبقى؛ لأن ميتهم قد عرف مصيره، وهم لا زالوا ينتظرون لا يعلمون أين المستقر وفي أي المحلين السكن، لكن زيارة الأموات تجعل اليقين أعمق، وتُسمع الأحياء صوت الأموات الذين لو أذن للصالح منهم أن ينشد لقال:

قل لإخوان رأوني ميِّتًا ... فبكوْني ورثوْني حزنًا
هل تظنون بأني مَيْتكم ... ليس هذا الميت والله أنا
أنا في الصور وهذا جسدي ... كان ثوبي وقميصي زمنا
أنا عصفور وهذا جسدي ... طرت عنه وبقى مرتهنا
أحمد الله الذي خلصني ... وبنى لي في المعالي سكنا
لا تظنوا الموت موتًا إنه ... ليس إلا نقلة من ها هنا!!

٨- عمل الطاعات:

كل ما زاد في إيمانك زاد في يقينك ولا بد، لأن أعمال القلب واحدة، واليقين على القمة منها، واليقين يؤدي إلى توائمه كما مر بك سابقًا، فكل

ما أدى بك إلى اليقين أدى إلى الصبر، والخشية، والخشوع، والإنابة، والرغبة، والرهبة، فكل هذه العبادات القلبية متداخلة، كنظرية الأواني المستطرقة.

فكل ما من شأنه أن يقوي إيمانك من أي طاعة كانت، فهو بإذن الله يقوي يقينك.

لكن العبادات التي تورث اليقين النافع لا بد أن يتوافر فيها ما يلي:

- الصدق وإخلاص النية لله، فكل مراءٍ بطاعته محروم من كنز اليقين غير مستحق له.
- حضور القلب فيها، ومعرفة الأسرار الباطنة، والمقاصد الثابتة لكل عبادة.
- عدم المنِّ والأذى بعدها؛ وإلا ضيع ثمرة مجهوده وخسر ما بذل.
- الدوام: فالدوام له أثر، أما إذا كنت كلما أطعت عصيت، أي كلما بنيت هدمت، وكلما زرعت قلعت، فكيف يعلو بناء يقينك؟! أو يثمر زرع إيمانك؟!

إن النفس إذا وجدت لذة العبادة، وأحست بأثر جرعات الدواء بدد فيها نور اليقين ظلام المادة، وأطفأ برد العفو نار الذنب، كالرضيع الذي يستغني عن اللبن بألوان الأطعمة المختلفة ليزهد بعدها في ثدي أمه.

والمعنى أنك كلما تناولت جرعة دواء زادت سرعة سيرك، وانتفض قلبك وكأنما نشط من عقال؛ ذلك أن المسافر إذا عاين البلد التي يريد دخولها أسرع واستحث دابته على السير بغير ما كانت عليه عند بدايات سفره والهدف عنه غائب، وكذلك القلب إذا ذاق حلاوة الإيمان ووجد أثر العافية صار أقوى عزمًا وأشد قوة لقربه من غايته وتلمح قلبه لأنوار ما سعى إليه(١).

ولهذا قال **ثابت البناني**:

«كابدتُ الصلاة عشرين سنة، وتنعمت بها عشرين سنة»(٢).

وما هذا إلا ثمرة من ثمرات اليقين، حيث تلذذ العبد بما فتح الله به عليه من مشاهدة الأنوار التي قاده إليها طول الاستمرار.

٩- اجتناب الهوادم:

وهي المعاصي التي تهدم صرح اليقين وتضعف أثره في القلب، فأي وقوع في المعصية يخدش اليقين إلا أن يضمد الإنسان جرح إيمانه بتوبة، ويعالج ما ألم به باستغفار مضاعف وبكاء متواصل، والوقوع في الذنب يكون إما لشهوة أو شبهة، وكلاهما مرده ضعف اليقين، فأما الشهوة فلو أيقن الإنسان بعواقب الاستسلام لشهوته وثواب الصبر عنها وزوال لذتها ودوام مرارتها لما هوى فيها، وأما الشبهة فمردها أيضًا ضعف اليقين،

(١) من كتابي (رُدَّ إلى روحي).
(٢) حلية الأولياء ٢/ ٣١٢.

والشيطان مع الضعفاء أقوى.

واسمعوا أثر الذنوب على القلوب من كلامه ﷺ: «**الإثم حوَّاز القلوب**»[1].

و«**حوَّاز**» بتشديد الواو، أي يحوز القلوب ويتملكها ويغلب عليها، حتى يمنع إشراقات اليقين من الدخول فضلاً عن أنوار الإيمان، و كيف يرجو العاصي بلوغ مقام أسمى كاليقين؛ وقد وقع في ما يخدش مقامًا أدنى منه وهو الإيمان؟!

وورد الحديث بتشديد الزاي في رواية أخرى، فهي «حوازٌّ» بتشديد الزاي جمع حازٍ، وهي الأمور التي تحز فيها أي تؤثر فيها، لتغير صفاء القلوب، وتكدر نقاءها، ومع توالي الذنوب وغارات إبليس المتتابعة؛ لا تبقى المعاني الإيمانية ثابتة راسخة في القلب بل مشوشة مهتزة مضطربة، وتضيع عند أول اختبار، ويُشَكُّ فيها مع أول منعطف.

يقول **ابن القيِّم**: «لو احتميت ساعة لم تحتج إلى معالجة الدواء مدة»[2].

أي لو وقيت نفسك الذنوب ساعة بدلا من أن تصيب منها ذنبا يوقعك في مرض حاد أو مزمن؛ يكبِّدك مشقة العلاج وتكاليفه الباهظة ووقتا طويلا إلى أن تُشفى، هذا إن سعيت للعلاج ولم تُهمل في مداواة قلبك أو تنسى، فيظل إيمانك مهزوزا ويقينك مخدوشا.

وأحبك **ابن حزم** وأراد لك السلامة، فسلك بك طريقا يبغِّضك في

(١) صحيح: السلسلة الصحيحة رقم: ٢٦١٣.
(٢) بدائع الفوائد ٣/ ٧٤٣.

المعصية ويعظِّم أثرها في عينيك لتجتنبها، فقال صادما:

١٠- الأمر والنهي: «إهمال ساعة يفسد رياضة سنة»[١]

من تمام الإيمان بالشيء الدعوة إليه، والدعوة إلى أمر ترسُّخ مفهومه في العقل وأثره في القلب ودوامه في الجوارح، فعن محمد بن النضر الحارثي [ت: ١٥٠]: «أول العلم الإنصات، ثم الاستمتاع له، ثم حفظه، ثم العمل به، ثم بثه»[٢].

لكن الترتيب هنا مهم، وبناء الطابق العاشر لا يتم إلا بعد بناء الدور الأول، وبالتالي فإن الخلل في الترتيب لا يوصل إلى اليقين المطلوب، بل قد يؤدي إلى عكس الغرض وهو نزع اليقين ومولد الشك بدلاً منه، وذلك حين يدعو المرء إلى عمل لا يعمل هو به ولا يواظب على ذلك، وعندها يعاقبه الله ليسقط في منتصف الطريق، ويتولى وينكص على عقبيه، وعياذًا بالله من ذلك.

إن حفظ حديث نبوي مثلاً وفهمه والعمل به ثم الدعوة إليه تجعله يسري في دم المرء ليطرد الشك ويورث؛ اليقين، ولذا كان عمل المرء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مما يزيد الإيمان ويعمق اليقين، وبركاته وثمراته عجيبة.

(١) الأخلاق والسير ص ٣٣.
(٢) حلية الأولياء ٨/ ٢١٧.

ثمرة العلوم العمل بالمعلوم

قال حفص بن حميد: سألت داود الطائي عن مسألة فقال داود: أليس المحارب إذا أراد أن يلقى الحرب.. أليس يجمع له آلته؟ فإذا فني عمره في جمع الآلة فمتى يحارب؟ إن العلم آلة العمل، فإذا فني عمره فيه فمتى يعمل؟![2].

يا من قرأ هذا الكتاب!! هذا الكتاب من آثار رحمة الله، فأين رحمة الله في عملك وحالك؟! هذه أرض حرث آخرتك هامدة ما اهتزت بالأعمال الصالحة

قبل القراءة فكيف بعد القراءة والغيث قد انهمر؟! أعدَّ ليوم الحساب صواب الجواب، وكن عبد الله بأفعالك كما صدعت بعبودية الأقوال.

هذا الكلام لا قيمة له إلا ليتحول إلى طاقة حركة، والسيف لا يقطع حتى يتحرك:

وما الصارم الهندي إلا كغيره　　إذا لم يفارقه النجاد وغمده

اللهم ...

اجعلني أكثر الناس انتفاعًا بما كتبتُ، اللهم اجعلني أكثرهم عملاً بما سطرتُ، اللهم اجعلني أحرصهم على التداوي بما أرشدتهم إليه.

---

(1) حلية الأولياء 17/ 341.

اللهم ...

علِّم بهذا الكلام جاهلاً، واهد به ضالاً، وثبِّت به عالمًا، وسدِّد به رميًا، وارفع به قدرًا، واغفر به ذنبًا، وأزل به غمًّا، وادفع به بلاءً، واقبله مني خالصًا لوجهك يا رب العالمين.

* * *

رددوا هذا النشيد

عن عنبسة بن الأزهر قال:

«كان محارب بن دثار قاضي أهل الكوفة قريب الجوار مني، فربما سمعته في بعض الليل يقول ويرفع صوته:

أنا الصغير الذي ربيته فلك الحمد.

وأنا الضعيف الذي قويته فلك الحمد.

وأنا الفقير الذي أغنيته فلك الحمد.

وأنا الصعلوك الذي موَّلته فلك الحمد.

وأنا الأعزب الذي زوَّجته فلك الحمد.

وأنا الساغب الذي أشبعته فلك الحمد.

وأنا العاري الذي كسوته فلك الحمد.

وأنا المسافر الذي صاحبته فلك الحمد.

وأنا الغائب الذي آويته فلك الحمد.

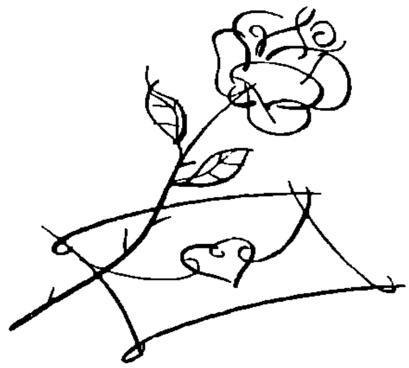
وأنا الراجل الذي حملته فلك الحمد.

ربنا ولك الحمد ربنا حمدًا كثيرًا على كُلِّ حمدٍ»(١).

---

(١) شعب الإيمان ٤/ ١٤٢

وأنا ألهج بما لهج به أخي محارب وأردد ما قال اعترافًا بفضل ربي عليَّ في إخراج هذا الكتاب، واستشعارًا لضآلة شكري في جوار نعمائه، وإقرارًا بعظيم ذنبي وعظيم آلائه، وأدعوكم في الختام لتسلكوا نفس الطريق وترفعوا أصواتكم بكلمات النشيد.



المراجـــع

القرآن وعلومه:

- الجامع لأحكام القرآن القرطبي.
- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري.
- التبيان في آداب حملة القرآن، النووي.
- بصائر ذوى التمييز، الفيروز آبادي.

السنة وشروحها:

- صحيح ابن ماجة، الألباني.
- صحيح الترغيب والترهيب، الألباني.
- صحيح سنن الترمذي، الألباني.
- صحيح البخاري الصغير، الألباني.
- فتح الباري، ابن حجر العسقلاني.
- شرح صحيح مسلم، النووي.

التاريخ والسير:

- حلية الأولياء، أبو نعيم الأصفهاني.
- سير أعلام النبلاء، شمس الدين الذهبي.
- البداية والنهاية، الحافظ ابن كثير.
- حياة الصحابة، الكاندهلوي.
- مناقب أحمد بن حنبل ، ابن الجوزي.
- أحداث صنعت التاريخ، محمود عبد الحليم.

اللغة والأدب:

- البيان والتبيين، الجاحظ.
- وحي القلم، مصطفى صادق الرافعي.
- التعريفات، الجرجاني.
- لسان العرب، ابن منظور.
- كتاب العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي.
- غريب الحديث، ابن الجوزي.

التزكية والرقائق:

- الآداب الشرعية والمنح المرعية، ابن مفلح.
- قوت القلوب، أبو طالب المكي.
- مدارج السالكين، ابن قيم الجوزية.
- تاريخ بغداد، الحافظ البغدادي.
- المدهش، ابن الجوزي.
- قصر الأمل، أبو بكر بن أبي الدنيا.
- طبقات الصوفية، أبو عبد الرحمن السلمي.
- نبوءات الرسول ﷺ، محمد الندوي.
- الطب النبوي، شرف الدين النووي.
- صفة الصفوة، ابن الجوزي
- الثبات عند الممات، ابن الجوزي.
- لا تحزن، عائض القرني.

- المكتوبات، سعيد النورسي.
- العقد الفريد، ابن عبد ربه.
- زاد المعاد ، ابن قيم الجوزية.
- تنبيه المغترين ، الشعراني.
- إتحاف السادة المتقين، الزبيدي.
- الزهد، أحمد بن حنبل.
- منهاج العابدين، أبو حامد الغزالي.
- التوكل، ابن أبي الدنيا.
- اليقين ، ابن أبي الدنيا.
- الرضا عن الله، ابن أبي الدنيا.
- صفة النار، الحافظ ابن أبي الدنيا.
- إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي.
- رسالة المسترشدين، الحارث المحاسبي.
- الفوائد، ابن قيم الجوزية.
- لطائف المعارف، ابن رجب الحنبلي.
- مختصر منهاج القاصدين، ابن قدامة.
- فصول إسلامية، علي الطنطاوي.
- تدبر القرآن، سلمان بن عمر السنيدي.
- فقه السيرة، محمد الغزالي.
- حياة الصحابة، الكاندهلوي.

- كنز العمال، الهندي.
- المنطلق، محمد أحمد الراشد.
- رُدَّ إليَّ روحي، خالد أبو شادي.
- معا نصنع الفجر القادم، خالد أبو شادي.



الفهـــرس

سر البداية ٤
مقدمة.. ٥
ما هو اليقين؟...................................... ١٢
درجات اليقين ١٥

الفصل الأول : فضل اليقين ودرجاته

فضل اليقين.. ١٩
١- غفران الذنوب ١٩
٢- صلاح هذه الأمة.................................. ٢٠
أمنا تشرح ٢١
٣- عينان في القلب.................................. ٢٣
بصائر ثاقبة ٢٦
٤- وقاية من عذاب القبر ٢٧
٥- سرعة التلبية...................................... ٣٠
ارتباط اليقين بالعمل ٣٢
٦- تربية الأنبياء...................................... ٣٢
ولتصنع على عيني ٣٦
٧- أعجب الخلق إيمانًا ٣٧
٨- دواء الشك الناجع ٣٩
احذر ثغرة.. ٤١
وتردد ثم مضى ٤٢

هلك المرتابون ٤٤
٩- شجرة فوائد ابن القيم.. ٤٥
١٠- أفضل الأعمال على الإطلاق ٤٦

الفصل الثاني : غرس اليقين

غرس اليقين ٥١
١- أين عقلك؟ ٥٢
٢- ليته قطفه ٥٥
٣- ضرب المثل.. ٥٧
٤- الموعد والمكان ٥٩
٥- رأى النار بعينه ٦٠
٦- وسمع النار بأذنه.. ٦٣
تلامذة يقتدون.. ٦٤
٧- وسمع عذاب القبر.. ٦٥
حتى اليهود يؤمنون ٦٧
أمك في انتظارك ٦٩
٨- ورأى الجنة رأي العين ٧٠
٩- كل نبوءاته تتحقق.. ٧٢
١٠- السيف طريق آخره الجنة ٧٥
الشهداء في القمة ٧٧

الفصل الثالث : أنواع اليقين

١- اليقين بصدق القرآن ٨١
أ- عشرون يغلبون مائتين ٨١
ب- فله عشر أمثالها.. ٨٢

جـ- غلبت الروم.. ٨٣
الثمرة .. هات الثمرة.. ٨٤
٢- اليقين بما أخبر به النبي ﷺ.. ٨٤
أ- يقين الصديق ﷺ.. ٨٤
ب- فيه شفاء للناس.. ٨٥
جـ- شهادة رجل برجلين.. ٨٦
د- لن أموت الآن.. ٨٧
هـ- اختبر يقينك.. ٨٧
بهؤلاء ننتصر.. ٨٩
الثمرة .. هات الثمرة.. ٩٠
١- في ساحة الغيب.. ٩٠
٢- في ساحة العمل.. ٩١
السيف الخشب.. ٩٤
٣- اليقين في قدرة الله.. ٩٥
الثمرة .. هات الثمرة.. ٩٨
٤- اليقين بالموت.. ٩٩
موعد إقلاع الموقنين.. ١٠٢
وانكشف الغطاء.. ١٠٣
٥- اليقين بالقدر.. ١٠٥
أ- اليقين بالرزق.. ١٠٦
رزقك مضمون مضمون.. ١٠٩
الثمرة .. هات الثمرة.. ١١١
* البعد عن الحسد.. ١١١

* التطهر من أكل الحرام أو شبهة الحرام ١١١
* القناعة ١١١
* تفريغ الهم للآخرة ١١٣
ب- اليقين بالأجل ١١٥
الثمرة .. هات الثمرة ١١٧
٦- اليقين بالجزاء.................................. ١١٩
اعتذار الظلمة ١٢٤
الظالم المسكين.................................... ١٢٦
الثمرة .. هات الثمرة ١٣٠
٧- اليقين بأسماء الله وصفاته......................... ١٣٠
الثمرة .. هات الثمرة ١٣٣

الفصل الرابع: توائم اليقين

١- الصبر ١٣٧
أ- الصبر على الطاعة ١٣٧
١- الأذان.. ١٣٩
٢- ذكر الله ١٤٤
٣- الإنفاق في سبيل الله ١٤٦
٤- صلاة الجمعة.................................... ١٥٠
٥- المشي إلى المساجد ١٥٢
ب- الصبر عن المعصية................................ ١٥٤
جـ - الصبر على البلاء ١٥٧
٢- التوكل ١٦٤
٣- الرضا ١٧٣

٤- الخوف ١٨٢

الفصل الخامس: طريق الوصول إلى اليقين

١- التفكر ١٩١
٢- تدبر القرآن ١٩٣
* معرفة التفسير ١٩٤
* التأني ١٩٤
* التغني بالقرآن ١٩٥
* التخلي عن موانع الفهم ١٩٨
* تكرار بعض الآيات ١٩٩
* طريقة الترقي ١٩٩
٣- الدعاء ٢٠٠
٤- التوهم ٢٠١
٥- الخلو ٢٠٤
٦- صحبة الموقنين ٢٠٦
٧- نظرة الوداع ٢١٠
٨- عمل الطاعات ٢١٤
٩- اجتناب الهوادم ٢١٦
١٠- الأمر والنهي ٢١٨
المراجع ٢٢٣
الفهرس ٢٢٧

